المرتضى
لكتب السودانية

ضحايا مصر في السودان
وخفايا السياسة الانجليزية

للباحث المطلع

محزون

« مذيل »

بمذكرة المرحوم محمد أبى الفتوح باشا عضو الوفد الرسمى التى قدمها فى مفاوضات المرحوم عدلى يكن باشا سنة ١٩٢١ م عن السودان المصرى .

طبع على نفقة دائرة

حضرة صاحب السمو الامير عمر طوسون

الطبعة الثالثة

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

مطبعة السفير باسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء الكتاب

أهدى كتابى هـذا الى حضرة مولاى صاحب السمو الامير الجليل المحبوب عمر طوسون عين الأمة المصرية وانسانها وقلبها ولسانها وحفيد محيي مصر ومنشيء السودان وأسمى من قدر السودان قدره وأجل من أشاد بذكره واعظم من نادى بوجوب رده الى حظيرة الوطن الاكبر

والى أرواح أولئك الشهداء الابرار الذين رووا أرض السودان بدمائهم الزكية تفانياً فى الابقاء على العلاقات التاريخيـــــة والصلات الابدية التى تربط مصر به من مبدأ الزمان وكتبوا بذلك أخلد صفحة فى سجل أشرف تضحيـة (أولئك مع الذين أنعم الله عليهـم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

المؤلف

السودان

النيـــل نيلنـــا والسودان بـــلادنا
فتعـــالوا الى كلمـــة سواء بيننـــا

تمهيـــد

السودان روح مصر وحياتها ــ إن تركته لايتركهـــا وإن تركها لاتتركه ــ مافى هذا أقل شك ولا أدنى ريب فليعلم من لايعلم أن كل حل للمسألة المصرية من شأنه أن يفصل السودان عن مصر إنما هو حل فاشل مقضى عليه بالخيبة الدائمة والنحس المستمر . وسوف تظل مصر ساخطة غاضبة ما لم يبق السودان جزءاً منها لايتجزأ. وإنه خير للمصريين السمر والمصريين البيض ان يرسفا معا الى الابد فى أغلال الاستعباد من أن يبت فى مصير كل منهما على حدة.

وبعد فقد آن للانكليز ولمن يود من أبناء هـــذا الوطن التعس لو يجاريهم فى اعتبار أن مصر شيء والسودان شيء آخر . أن يرجعوا الى التاريخ القديم حتى يتبين لهم أنه لم يكن ثمت فى العالم مايدعى بالامبراطورية البريطانيـــة بل بريطانيـا الصغرى أيام أن فتح فراعنة الاسرة السادسة القديمة بلاد السودان منذ أكثر من أربعة آلاف

الباقية من الجيش العرابى ؟ ألم تضح بغوردون تنفيذاً لسياسة اجلاء المصريين عن السودان ؟ ألم تنتهز فرصة مقتل السردار لتلتهم السودان وتبتره بتراً من جسم الوطن الأكبر ؟

هاهى ضحايانا وضحاياكم من وقت قيام الثورة المهدية حتى مقتل التعايشى - أعنى من ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ الى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ - قد توخيت الدقة المتناهية فى احصائها كيلا اتهم بالتحيز والتحامل ولم أقدم على اعلانها إلا بعد أن راجعت كل ماوقع بيدى من الكتب والمستندات التاريخية وأنا بالسودان أولا وبمصر أخيراً مثنى وثلاث . وقارنت بين ماورد فيها وما دونته بمذكراتى من أقوال المعاصرين من شهود الرؤية من مواطنينا هنا وهناك الذين اشتركوا فى معظم الوقائع . ثم قابلت بين هذا كله وما جاء بمؤلف نعوم بك شقير وهو خلاصة وافية لما كتب مختلفو المؤرخين عن السودان. وقد اشتهر صاحبه بأنه من أكثر الباحثين اعتـــــدالا وأقلهم جميعاً اسرافا فى تقدير عدد الضحايا فضلا عن كونه قد شاهد بعينه أغلب وقائع الفتح. واستشهدت بأقوال كل من سلاطين باشا فى وقائع دارفور وابراهيم فوزى باشا فى وقائع الخرطوم لانهما حضرا تلك الوقائع بنفسيهما.

وحسبى الآن أن أدع للأرقام الكلام :

ضحايانا وضحاياهم

من الارواح

الوقائع الأولى

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
واقعة آبا	١٢ اغسطس سنة ١٨٨١	٤٠٠		
« راشد بك	٩ ديسمبر سنة ١٨٨١	٦٠٠		قتل فى هذه الموقعة ١٠٠٠ من الشلوك ومانسكهم.
« الشلالى	٢٩ مايو سنة ١٨٨٢	٤٠٠٠		قتل علاوة على رجال الجيش ٢٠٠٠ من الاعراب الموالين لمصر.
		٥٠٠٠		

وقائع الجزيرة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع ابن المكاشف . والشريف احمد طه . ومحمد زين . وتيقو	ابريل ـ يونيه سنة ١٨٨٢	١٠٠٠		
واقعة الجبلين	يوليه «	٢٠٠٠		
وقائع شات . والدويم . وام سنيطة وحلة حجاج	اغسطس ـ ديسمبر «	١٠٠٠		
وقائع معتوق . والداعى . وسقدمويه والتبنه	يناير ـ مارس ١٨٨٣	٥٠٠		
		٤٥٠٠		

وقائـــــــــع كردفـــــــــان

الوقـــائـــع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	مـــلاحظـــات
وقائع البركة . وبارا . والطيـــارة والأبيض الاولى	مايو ـ سبتمبر سنة ١٨٨٢	٣٠٠٠		ذبح فى الطيارة نحو الـ ١٠٠٠٠ تاجر مصرى ونهبت بضائعهم.
واقعة على بك لطفى أبو كوكة	سبتمبر «	٢٠٠٠		حدثت الموقعة فى حلة كو ود جفون.
حصار بارا وسقوطها	٥ ينـاير سنة ١٨٨٣	١٠٠٠		
« الأبيض وسقوطها	١٩ ينـاير «	٣٠٠٠		جمع من الاسلاب ٣ مليون ريال و ٢٥٠ الف جنيه واربعة آلاف اوقيه ذهب خام . وخمسة قناطير حلى . و ٤٠ قنطار فضة . وقتل وسبي نحو الـ ١٠٠٠٠ فتى وفتاة .
واقعة المرابيع	ابريـل «	٣٠٠		
« هكس	٥ نوفمبر «	١٠٠٠٠	١	وتدعى موقعة شيكان .
		١٩٣٠٠	١	

وقائع دارفور

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
ثورة الشيخ المادبو . وحصار دارة وكبكبيه . والفاشر وسقوطها	يوليه ١٨٨٢ يناير ١٨٨٤	٣٠٠٠		قتل فى هذه الوقائع ٧٠٠٠ من الاعراب الموالين للحكومة . وعذب المصريون والمصريات أشد العذاب .

وقائع بحر الغزال

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الجانقى والشيخ يانكو وبحربيرى	١٨٨٢ — ١٨٨٤	٥٠٠	١	أسر لبتون بك مدير بحر الغزال ومات حتف انفه بالاسر .

وقائع سنار

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الشريف انجضو وفامكه وودمدنى وفداسى وابى الحسنى والشيخ غالب	١٨٨٣ — ١٨٨٤	١٠٠٠		

وقائـــــع طوكر وسواكن وسنــــكات

الوقـــائـــع	التـــاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	مـــلاحظـــات
وقائع سنكات . وقباب . وابنت . والتيب الاولى . وطماى الاولى	اغسطس — ديسمبر سنه ١٨٨٣	١٥٠٠		القائمقام ابراهيم فهمى السوارى قال انه كان حكمدار الكشافة فى واقعة التيب الثانيه وعرف عن مخازى الانجليز حيث بلغ عن وجود العدو بقرب التيب فلم يستمع له بلاغ حيث كان يكر القائد . الى ان وقع جاويش الكشافة السوارى فى كمين العدو . عندئذ فقط وقع الجيش المصرى فى المصيبة التى يرغبها الانجليز .
واقعة التيب الثانية	فبراير ١٨٨٤	٣٠٠٠		
حصار سنكات وسقوطها	» »	٦٠٠		
» طوكر »	» »	٥٠٠		
واقعة التيب الثالثة	» »		١٨٩	لم استدل على عدد القتلى من الجيش المصرى فى هذه الوقائع ومع انه لايوجد شك فى كونه اضعاف ماقتل من الانكليز كما هى العادة فقد ضربت صفحا عن تقديره
» طماى الثانية	مارس »		٢٢٠	
» تل هشيم	» »		٤٨	
» توفرك	» »		٢٩٦	
		٥٦٠٠	٧٥٣	

وقائع السودان الشرقى

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع مريود . وقدبى . وزرقة	نوفمبر وديسمبر ١٨٨٣	٥٠٠		قتل فى هذه الوقائع وسواها بتلك الجهات نحو
« الجمام . والعشرة . وسدينة	فبراير ومارس ١٨٨٤	٥٠٠		المشرة آلاف من رجال القبائل الموالين لمصر
واقعة قلوسيت	٥ يناير ١٨٨٥	١٠٠٠		وغيرهم من شيعة السادة المرغنية.
		٢٠٠٠		

وقائع خط الاستواء

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع خط الاستواء	١٨٨١ — ١٨٨٩	٢٠٠٠		

وقائع بربر

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار بربر وسقوطها	مايو سنة ١٨٨٤	١٥٠٠		وجد الثوار بالخزينة ٥٥٨١٢ جنيها كانت مرسلة الى مصر و ٨٠٠٠ كانت محصلة . وذبح ٣٠٠٠ مصرى.

وقائع دنقلة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع دنقلة	سبتمبر سنة ١٨٨٤	٤٠٠		

وقائع حصار الخرطوم

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الحلفاية الاولى . والشرق والحلفاية الثانية	مارس سنة ١٨٨٤	٣٥٠٠		
وقائع القطينة . والكلاكلة . وبرى . والجريف . والحلفاية الثالثة	يوليه واغسطس «	٢٥٠٠		
وقائع أبوحراز . والعيلفون . وأم ضبان	سبتمبر «	٨٠٠٠		
بعثة استيوارت	« «	٢٠	٢	الكولونيل استيوارت والمستر پاور قنصل انجلترا بالخرطوم .
حصار أم درمان وسقوطها	٥ يناير ١٨٨٥	٣٠٠		
سقوط الخرطوم	٢٦ يناير «	٨٠٠٠	١	أحصى من الغنائم ٣٠٠ الف جنيه . و ٣٠٠ الف ريال و٣٠ قنطار حلى . و ٤٠٠ قنطار فضه . وسبيت ٣٥٠٠٠ فتاة ، وقتل ٢٤٠٠٠ مصرى من السكان .
		٢٢٣٢٠	٣	

حملة انقاذ غردون

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع أبو طليح والمتمة وكربكان	١٧ يناير - ١٠ فبراير سنة ١٨٨٥		٣٤٦	لم تذكر خسائر مصر مع ان الجنود المصريه حملت البواخر فوق الشلالات ثلاثه اميال

حصار كسلا

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار كسلا وسقوطها	٢٩ يوليه سنة ١٨٨٥	٤٥٠٠		اظهر عثمان بك قائدها شجاعه عند اعدامه بأمر عثمان دجنه ظلماً.

حصار سنار

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
حصار سنار وسقوطها	١٩ أغسطس سنة ١٨٨٥	٥٠٠٠		صودر جميع الذهب الذى وجد لدى الاهالى وكانوا اغنى اهل السودان .

وقائع الحدود

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع الحدود.	١٨٨٥ — ١٨٩١	١٥٠٠		

استرجاع طوكر

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
واقعتا هندوب والجميزة	١٨٨٨ — ١٨٩١	٢٠٠		

تجريدة دنقلة

الوقائع	التاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظات
وقائع تجريدة دنقلة	ابريل - سبتمبر سنة ١٨٩٦	٢٥٠		

وبـــاء الكولـــيرا

الوقـــائع	التـــاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظـــات
وباء الكوليرا	١٥ يونيه — ٢٠ اغسطس سنة ١٨٩٦	١٦٠	١٩	

وقائـــع الفتح الأخـــير

الوقـــائع	التـــاريخ	خسائر مصر	خسائر انجلترا	ملاحظـــات
واقعة أبو حمد	اغسطس سنة ١٨٩٧	٨٦		
« عطبره	ابريل « ١٨٩٨	٤٣٣	١١٧	
« أم درمان	٢ سبتمبر « ١٨٩٨	٣٣٠	١٦٠	
« الرصيرص	٢٦ ديسمبر « ١٨٩٨	١٤٦		
واقعتا أبو عادل والجديد	٢٣و٢٤ نوفمبر « ١٨٩٩	٢٦		
القضارف	١٨٩٨			
حصار القضارف				لها مداليه حربيه ومشبك .
		١٠٢١	٢٧٧	

فجملة الضحايا من الجيش المصرى ٨٠٠٠٠ تقريبا (٧٩٧٥١) مقابل ١٤٠٠ من الجيش الانكليزى.

ولرب معترض يقول: وهل كانت لمصر كل تلك الجنود بالسودان؟ ودفعاً لهذا الاعتراض أذكر فيما يلى بيان الجيش الذى كان مرابطاً بالسودان قبيل الثورة :ـ

١٩٥٠	ضابطا وجنديا		بدنقلة
٢١٧٠	«	«	ببربر
٧٤٧٠	«	«	بالخرطوم
٢٣٥٠	«	«	بسنار
١٦١٠	«	«	بالقلابات
٨٠٠	«	«	بالجيرة
٢٠٠	«	«	بالقضارف
٣٩٤٠	«	«	بكسلا
٩٢٠	«	«	باميديب
١٩٠٠	«	«	بسنهيت
٣٤٧٠	«	«	بهرر
٥٨٣٠	«	«	بكردفان
٤٨٦٣	«	«	بدارفور
٨٨٦	«	«	ببحر الغزال
٢,١٣١	«	«	بخط الاستواء
٤٠٤٩٠			الجملة

فلما تولى أمر السودان المرحوم عبدالقادر باشا حلمي ووجد الضعف سائداً على حاميات الخرطوم وسنار وكردفان استقدم بضعة طوابير من الجنود المرابطة على حدود الحبشة وعزز بها تلك الحاميات . ولما تحقق لديه أنها لاتكفى حرض المصريين المقيمين بالسودان على التطوع وجند رفيقهم تعزيزاً للجيش المدافع ويأساً من امداد مصر التى كانت فى معمعان الثورة العرابية يومئذ وتولى بنفسه تدريب متطوعى الخرطوم . ولما جاء غوردون أمر بالتطوع فتطوع فى بضعة أيام ٣٢ (أورديا) بكل ما أوردى عدد يتراوح بين المائة والثلثمائة جندى . وقبيل سقوط الخرطوم ساق كل قادر على حمل السلاح من سكانها الى خط النار . وكان بالسودان حوالى ٣٠٠٠٠ موظف مدنى تطوعوا كلهم للقتال ولم يعد منهم إلى مصر إلا أفراد .

وحالما شرع فى التمهيد لنكبة هكس سيق الى السودان من فلول الجيش العرابى :—

الألاى الاول	بقيادة الاميرالاى سليم بك عونى	وعدد رجاله		٢٤٠٠
« الثانى	بقيادة الاميرالاى السيد بك عبدالرازق	«	«	٢٥٠٠
« الثالث	بقيادة اللواء ابراهيم باشا حيدر	«	«	٢٦٠٠
« الرابع	بقيادة الاميرالاى رجب بك صديق	«	«	٣٠٠٠
الطوبجية والسوارى	بقيادة الاميرالاى عباس بك وهبى	»	«	٢٤٠٠
	والجملة			١٢٩٠٠

ولما حدثت النكبة وأسقط فى يد الحكومة ورؤى أن الجيش

الجديد الذى تألف بعد حل الجيش العــــرابى وعدد رجاله لايجاوز الستة آلاف لم يتم تدريبه ولا يستطاع الاستغناء عنه وكانت السياسة الانكليزية مصممة على ارسال حملة بيكر بحجة إنقاذ حاميتى سنكات وطوكر، جمع من الرديف :ـ

٦٥٠	جنديا من الاسكندرية		
٥٠٠	«	«	القاهرة
٤٥٠	«	«	عساكر مصوع
٤٢١	«	«	عساكر سنهيت
٤٢٩	«	«	الأتراك الباشبوزق
٦٢٨	«	«	عساكر الزبير باشا
١٢٨	«	«	الطوبجية
٣٠٠	«	«	الفرسان المصريين
١٥٠	«	«	الفرسان الباشبوزق
٣٦٥٦	والجملة		

وكان مع هذه القوة القائد ابراهيم بك فهمى السوارى ويروى بأنه كان قائد الكشافة وعند ما نظر العدو أرسل الخبر فلم يستمع منـه حتى قبض العدو على المقدمة وعندها تمت النكبة بجميع القوة

مات خمسة أسداسهم فى أول موقعة

الضحايا من غير العسكريين

هذا وقد أجمع المؤرخون والمعاصرون على أن عدد الضحايا من المصريين المدنيين الذين لم يشتركوا فى الحروب فاق كل حصر . ونحن نقدرهم بما لا يقل عن ربع مليون شخص . وندلى فيما يلى بالأدلة التاريخية والحوادث الواقعية التي تؤيد هذا التقدير :ـ

أولا

كانت مدينة الطيارة أكبر مركز لتجارة الصمغ وريش النعام وسواهما من محصولات كردفان . وكان بها زهاء العشرة آلاف تاجر وعامل جلهم من المصريين فذبحوا على بكرة أبيهم حيث اعتزم الفقيه المنة ـ زعيم قبائل الجمع والجوامعة وأخطر الثوار في صحراء كردفان ـ أن يقضى على جميع الذكور حتى الاجنة فى بطون أمهاتها خشية أن تكون ذكورا . وقد بقرت بطون نحو ألف سيدة حبلى لهذه الغاية الوحشية . وكان قومه يقذفون بالاطفال فى الجو ويتلقونهم على أسنة الرماح ـ الامر الذى استنكره المهدى نفسه

ثانياً

كان عدد سكان مدينة الابيض حاضرة كردفان يربو على الخمسين ألفاً أغلبهم من المصريين . فلما سقطت المدينة لم يبق من هؤلاء سوى بضعة آلاف حيث قضى الجوع على أغلبهم أثناء الحصار إذ بلغت أسعار الحاجيات

أقصى مايتصوره العقل . فكانت الاقة من لحم الحمير تباع بمائتى ريال .
وأكل الكثيرون بعضهم بعضا فضلا عمن ماتوا أثناء التعذيب للدلالة
على ماخبئوه من أموالهم ، وسبيت جميع الفنيات فانتحر بعضهن
والكثيرون من أوليائهن .

ثالثــاً

كان محمد بك خالد زقل ابن عم المهدى وكيلا ثم مديراً لمديرية
دارة بدارفور . فلما أمره ابن عمه على جميع الاقاليم انتقم شر انتقام
من زملائه ومرءوسيه المصريين ونكل بهم أشد تنكيل لدرجة حملت
ضابطين من زملائه على تفضيل الانتحار السريع على الموت البطيء
الذى كان يلاقيه اخوانهم ومواطنوهم . وحكاية الصاغ حماده افندى
ماتزال مضرب الأمثال فى السودان حتى اليوم . فقد ضرب ثلاثة آلاف
سوط فى ثلاثة أيام متوالية بمعــدل ألف سوط فى اليوم . وكانت تملأ
جروحه بالملح والفلفل امعاناً فى تعذيبه كي يدل على أمواله المخبوءة ،
ولكنه مات دون أن يفعل مصراً على أن المال ماله ، وأنه ورثه عن أبيه .
وأن المهدى ما كان أخاً له حتى ينازعه تراثه

رابعــا

ذبح الثوار جميع التجار المصريين فى كل أنحاء السودان مع وكلائهم
وعمالهم وذلك لسلب بضائعهم .

خامســا

ذبح كافه المصريين الذين كانوا يقيمون بمديرية بربر . ومن

عجب أن محمد الخير زعيم الثوار فى تلك المديرية أمر بعدم التعرض للنساء كأن تأيمهن وتيتيمهن دون هتك أعراضهن . وقد شكر له المؤرخون هذا الصنيع باعتبار أن بعض الشر أهون من بعض .

سادسا

قتل من سكان الخرطوم فى يوم سقوطها ٢٤٠٠٠ رجل وبضع نساء . وفى رواية شقير بك ٣٦٠٠٠ (وهذا العدد أقرب الى الصحة لأنه ذكر من ضمنه الجيش المدافع الذى قدرنا نحن ضحاياه يومئذ بثمانية آلاف فقط) . وسبيت ٣٥٠٠٠ فتاة وسيدة من كرائم وعقائل المصريين - ولقد تحدثت الى الكثيرات من بقاياهن فأسمعننى من أنباء ما ارتكب معهن من الفظائع والمنكرات مايفرى الكبد ويهد العضد .

سابعا

كان سكان حامية كسلا بعائلاتهم وأولادهم قبيل حصارها يزيدون على الخمسين ألفا أكثرهم من المصريين فكانت البقية الباقية من الجميع يوم سقوطها ٤٨٠٠ شخص .

ثامنا

كانت مدينة سنار أحفل مدن السودان بالمصريين بعد الخرطوم فبلغ عددهم يوم سقوطها ثلاثة آلاف لاغير .

وهكذا كان الشأن فى باقى الجهات

ولقد وقع الينا الدليل الذى لا ينقض ، ووقفنا على عظم الكارثة التى أودت بحياة أولئك الأبرياء وفداحة الخطب الذى ألم بمصر بفقدهم وفقد السودان معهم :—

ذكر المرحوم فوزى باشا فى كتابه أن غوردون عمل إحصاء رسمياً للمصريين القيمين بالخرطوم قبيل سقوطها (وأنا أرجح أن التقدير اعما كان لجميع المصريين القيمين بالسودان لا بالخرطوم وحدها) . فبلغوا مائتى ألف نفس . وأرسل تلك الاحصائية مع بعثة استيوارت فى سبتمبر سنة ١٨٨٤ . فلما سقطت الخرطوم ومات المهدى أمر التعايشى ذات يوم أن يجتمع المصريون فى صعيد واحد . وكان يسميهم (فضلة سيف المهدى) . فاجتمعوا وبلغ عددهم يومئذ خمسة آلاف من الرجال .

وفى اعتقادى أنه كان المجاعة المروعة التى حدثت فى عهد الخليفة (١٨٨٨ — ١٨٨٩) أثر يذكر فى القضاء عليهم . فقد فتكت بمئات الالوف من أهالى السودان أنفسهم ولا ريب أنها كانت بالمصريين أفتك وأفدح .

ومن هذا يتضح للملأ أنه ليست هنالك أدنى مبالغة فى تقدير الضحايا بربع مليون . على أننا لو تساهلنا الى أبعد حدود التساهل وافترضنا أن هذا العدد يشمل الجيش القاتل ، لكانت النتيجة أن خسارة مصر ربع مليون مقابل ١٤٠٠ إنكليزى — أستغفر الله — فان نصف هؤلاء أو أكثر كان من الهنود . فقد كانت جنود حملة الجنرال جراهم بسواكن كلهم من أولئك الهنود التعساء .

وذلك غير من قتل من جيشنا فى المدة من أول سنة ١٩٠٠ الى آخر سنة ١٩٢٤ فى الفتن والقلاقل الداخلية التي أربت على المائة والعشرين فى عصر العدالة الانكليزية وبسببها — وكان بعضها حروبا طاحنة لاحركات صغيرة — وما العهد بمذبحة (ود حبوبة) بالكاملين على النيل الازرق، وموقعة الكتفية المشهورة فى سنة ١٩٠٨ ولا بثورة النوير والانواك فى سنة ١٩١٢ ببعيد .

ولعلى أوفق قريبا لاحصاء خسائرنا وخسائرهم فى هذا العهد اتماما للبحث .

رجالنـــــا ورجالهم

ولربما زعم الانكليز — كعادتهم — أنهم يمتازون بفقد خمسة أوستة من أعلام رجالهم وكبار قوادهم أمثال هكس باشا والكولونيل استيوارت وغوردون باشا ولبتون بك (ولو أن هؤلاء كانوا فى الواقع موظفين بالحكومة المصرية) والجنرالين ارل واستيوارت .

ورداً على هذا أذكر هنا أسماء حوالى مائتى شخص من أعلام رجالنا وكبار قوادنا (من رتبة بكباشى فما فوق) غير من لم أعثر على أسمائهم ممن استشهدوا أثناء الثورة . وأما ضحايا تعمير السودان من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩٢٤ فانها أفظع من الحرب حيث الوحدات المصرية ذهبت ضحية الحميات وغيرها : —

الوقائع	القتلى					
	لواء	اميرألاى	قائمقام	سنجق	بكباشى	موظف كبير
واقعة راشد بك			راشد بك ايمن			
واقعة الشلالى	يوسف باشا الشلالى		محمد بك عثمان		حسن رفقى افندى	
واقعة على بك لطفى			على بك لطفى			
سقوط الابيض	محمد سعيد باشا	على بك شريف			محمد الفولى افندى باشا حماد « محمود حسن « نظيم «	محمد بك يس ناظر قسم كردفان

الوقائع	القتلى: لواء	اميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشى	موظف كبير
واقعة شيكان أو هكس	محمد علاء الدين باشا حسين مظهر باشا	سليم عونى بك السيد عبد القادر بك حسين فهمى بك عباس وهبى « رجب صديق «		عبد العزيز بك يحيي كامل « خير الدين «		الدكتور جورجى بك حكيمباشى الحملة
وقائع دارفور					شرف الدين افندى على الطوبجى « محمد فرج «	
وقائع سنكات وطوكر وسواكن		عبد الرزاق نظمى بك	محمد توفيق المصرى بك بطل سنكات		محمود خليل افندى محمد فهمى المصرى « كاظم «	

الوقائع	القتلى					
	لواء	أميرألاى	قائمقام	سنجق	بكباشي	موظف كبير
			سلطان عبد الله بك	مولىّ بك		محمد باشا حسن مأمور المالية
			محمد الملك بك	علي «	ابراهيم سودان افندى	عصمت بك مدير التلغرافات
			عثمان حشمت «	ميتو «	منصور عبدالعال «	ابراهيم بك رشدي سكرتير غوردون
			فرج صالح «	عبد الهادى «	محمد عثمان «	قرياقص بك القمص باشكاتب الخرطوم
وقائع	محمد على حسين باشا		السيد امين «	محمد كرسى «	احمد حماية «	محمد ابراهيم بك
حصار الخرطوم	موسى شوقى باشا	بخيت بطراكى بك	سرور بهجت «	محمد قرضيه «	محمد دسوقى «	الشيخ محمد حتيك قاضى القضاة
وأم درمان	فرج الزينى باشا	محمد القبانى بك	يوسف عفت «	محمد السنجق «	حسين محمد «	الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان
وسقوطهما			حسين القبانى «	نصر «	على صقر «	
			احمد ابو القاسم «	بشير خشم الموس «	سليمان النشار «	
			عبد الله العبد «	محمد نعمان «	حسن فؤاد «	
			عبد القادر حسن «			
			حسن العقاد «			

الوقائع	القتلى					
	لواء	أميرالاى	قائمقام	سنجق	بكباشى	موظف كبير
تابع حصار الخرطوم وأم درمان وسقوطها			مصطفى عصمت بك محمد اسلام « ابراهيم لبيب « احمد عبد الوهاب «			الشيخ محمد موسى مفتى المحاكم الشرعية الشيخ محمد السقا شيخ القراء الشيخ حسين المجدى رئيس اساتذة المدرسة الاميرية السيد فايد شيخ السجادة الاحمدية احمد بك جلاب مدير الخرطوم
سقوط كسلا	احمد عفت باشا			حسن سليمان بك		احمد شوقي بك معاون المديرية

الوقائع	القتلى					
	لواء	أميرالاي	قائمقام	سنجق	بكباشي	موظف كبير
سقوط سنار	حسن صادق باشا		حسن عثمان الكريتلى بك			احمد مكوار بك وكيل المديرية
سقوط خط الاستواء		سليم مطر بك	حامد محمد بك فضل المولى «		مرجان افندى عبد الوهاب طلعت علي جبور افندي بخيت « سالم خلاف «	
فى الأسر	صالح الملك باشا فرج الله باشا					

تلكم أسماء من ذكروا فى الكتب والوثائق التاريخية ومعظمهم من كبار القواد وأعاظم الرجال كما أسلفت . ومن المؤكد أن هناك عشرات من رتبهم لم تذكر أسماؤهم وأسدل عليهم الزمان ستار النسيان وذلكم غير المئات بل الالوف من صغار الضباط وعظمائهم (من رتبة صاغقول أغاسى فما تحتها) فقد فقد من هؤلاء فى واقعتي شيكان والتيب نحو الخمسمائة ضابط بفضل ارشاد وحسن قيادة الجنرالين هيكس وبيكر.

فلو فرضنا أن جملة من فقد من الضباط العظام — من رتبة صاغ فصاعداً — مائتان فقط لكان مجموع مافقدته انكلترا بالنسبة لمصر :ـ

١½ فى المائة من الجنود
٣ فى المائة من القواد
صفر فى المائة من الاهالى

وبهذه النسب الحقيرة يرفع الانكليز عقيرتهم مطالبين (بحق الفتح) ولا ريب عندى أن مجرد المقارنة ـ إن كان ثمت الى مقارنة من سبيل ـ يقضى قضاء أبديا على ذلك الادعاء الجرىء الذى لم يذكر له التاريخ مثيلا .

ضحـــــايانا وضحـــــاياهم

من الاموال

أما فيما يتعلق بالاموال فلا سبيل الى المقارنة . فانكاترا لم تخسر شيئاً فى حين أن مصر قد خسرت كل شيء — وبهـــذا يعترف الانكليز أنفسهم — ومع ذلك فلنعالج الموضوع .

لا يمكن بطبيعة الحال احصاء ما أنفقت مصر من مال فى سبيل تعمير السودان وتمدينه من عهد محمد على حتى قيام الثورة المهدية — وانما يستطاع أن يقال اجمالا إنها أقامت جميع المنشئات من مبان فخمة الى معسكرات ومصالح أميرية وجوامع ومدارس (ونذكر هنا أنها لم تضن على السودان بأكبر علمائها فبعثت برفاعة بك ناظـــراً لمدرسة الخرطوم) وساعدت الاهالى على بناء دورهم بالطوب والاخشاب بدل اتخاذها من اللبن والغاب وجلود الحيوان — ومهدت الطرق الصحراوية ونظمت البريد ، وأدخلت زراعة القطن ، وأنشأت المطبعة الاميرية ، وفتحت السدود النيلية لتسهيل الملاحة صعداً فى أعالى النيل — وفتحت الاصقاع النائية فى بحر الغزال ودارفور ومنجلا وأوغندا وبلاد زنجبار وكفتها شر النخاسة وفظائع النخاسين ، ومدت أول سكة حديدية عرفها السودان فبلغت تكاليف خمسين ميلا منها ٤٥٠ ألف جنيه دفعتها مصر عن طيب خاطر فى عهد أشد ضائقة ماليـــة عرفتها ، وأنشأت ترسانة كبرى لصنع البواخر والمراكب وتصليحها وقد بنيت فيها وابورات (بوردين وتل حوين والتوفيقية والمنصورة والفـــاشر والاسماعيلية

وعباس وشبين والمسلمية والحسينية و نيانزا ومحمد على والزبير والسلطان والخـــديوى) وسواها ، وقد غرق منها ماغرق واستولى الثوار على الباقى . أما وابور القاهرة فقد بنى فى عهد الثورة .

وقصارى القول أن مصر خلقت السودان خلقاً جديداً من جميع النواحى .

وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن نفقات السودان كانت تربو على إيراداته طوال عهد الحكم المصرى وأنه كان يحتاج فى أغلب السنين الى مبلغ يتراوح بين المليون والثلاثة لتغطية العجز ـ الامر الذى فكر من أجله المغفور له سعيد باشا فى ترك السودان لولا توسل أهله وإلحاحهم ـ والذى ساقته انجلترا كأقوى حجة لتخلى مصر عن السودان .

فاذا فرضنا أنه كان يحتاج فى المتوسط الى مليون جنيـــه سنويا لكانت جملة ما أنفق على تعميره من عهد محمد على حتى قيام الثورة المهدية أكثر من ستين مليوناً من الجنيهات .

ولننظر الآن الى ماخسرت مصر فى ابان الثورة وبعدها :ـ

(١) — خسر جميع المصريين الذين كانوا بالسودان دون استثناء كافة أموالهم وأمتعتهم وأملاكهم وعقاراتهم وكان أكثرهم أغنياء ـ فلا تقدر خسارتهم بأقل من عشرة ملايين من الجنيهات .

(٢) — استولى الثوار على جميع الاسلحة والذخائر والخزائن الاميرية والاموال وكافة ممتلكات الحكومة ومنشئاتها فى ثلثي قرن من الزمان بما لايقدر ثمنه بما دون العشرين مليونا .

(٣) خسرت مصر تجارتها مع السودان زهاء العشرين عاما وكانت قيمة صادراته ١١ مليونا من الجنيهات ووارداته نحو ثلث هذا المبلغ. وقدرت الخسارة بمليونى جنيه سنويا وجملتها حوالى أربعين مليونا .

(٤) أنفقت مصر ١١ مليون جنيه فى سبيل استرداد السودان

(٥) بلغ مجموع ما أنفق على السودان من سنة ١٨٩٩ الى الآن كالآتى :ــ

جنيــــه

٥ر٣٢٣ر٦٩٦ القروض المعطاة من أجل الاعمال المتعلقة بنمو السودان من سنة ١٨٩٩ لغاية سنة ١٩١٤ م.

٥ر٣٥٣ر٢١٥ الاعانات الممنوحة سنويا لسد عجز الايرادات من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٢ م.

٣ر٤١٨ر٨٠٥ المصروفات العسكرية الخاصة بالسودان من سنة ١٩١٤ لغاية سنة ١٩٢٢ م .

١ر٥٠٠ر٠٠٠ مبلغ ماصرف على السودان فى سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٤ م.

٤ر٥٠٠ر٠٠٠ مادفع للسودان من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٠ بواقع ٧٥٠ ألف جنيه سنويا.

٢٠ر٠٩٥ر٧١٦ الجملة

فجملة ما أنفق على السودان لا يمكن أن يقل بحال من الأحوال عن مائة وخمسين مليونا من الجنيهات دفعتها مصر من دم أبنائها مقابل ٧٩٨٨٠٢ من الجنيهات اضطرت انكلترا الى النزول عنها لمصر في فبراير سنة ١٨٩٦ عند الشروع فى حملة دنقلة .

فيكون ماخسرته انكلترا بالنسبة لمصر من الاموال هو :

نصف فى المائة

وتكون دعوى التعمير والنفقات قد انتفت بهذه المقارنة الصريحة وتلك الارقام الناطقة .

الادارة المصرية والادارة الانكليزية

(١) وإننا بطلبنا إرجاع السودان الى مصر نريد أن نجعله شريكا له مالنا وعليه ماعلينا .

(من مذكرة الوفد لمؤتمر الصلح فى سنه ١٩١٩)

(٢) لقد كان للمصريين قبيل احتلال الانكليز السلطة التامة فى السودان ولكنهم أساءوا السياسة والادارة لدرجة اضطرت السودان الى طردهم فقد كانوا دخلاء ظالمين .

(حديث المستر لويدجورج المنشور بالعدد ١٦٤٢٤ من الاهرام الصادر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠)

يحاول الانكليز أن يدخلوا فى روع إخواننا السودانيين أننا نريد استعبادهم واستعمار بلادهم وهذا أمر لم يفكر فيه مصرى على الاطلاق . ولم يدر فى خلد أحد يوما ما ولا يجوز بحال من الاحوال أن يصدقه مواطنونا الاعزاء اللهم إلا اذا جاز لاهل الولايات المتحدة الجنوبية أن يصدقوا أن أهل الولايات الشمالية يتحكمون فيهم ويستغلون بلادهم أو يظن سكان بافاريا أن قطان بروسيا يتسلطون عليهم .

على أنى جازم بأن شيئاً من تلك المزاعم والاوهام لا يمكن أن يجوز على عقول مواطنينا الاذكياء وهم يعلمون من التاريخ أن مديريات

السودان كانت ترجع فى أغلب الاوقات الى مصر فى شؤونها المباشرة دون تدخل الحكمدارية ـ شأنها فى هذا شأن المديريات المصرية ـ وأكثر ماحصل هذا فى عصرى سعيد واسماعيل ولم يبطل العمل به إلا عندما تولى الحكمدارية غوردون وبناء على إلحاحه تمهيداً لماحدث بعد ذلك من المصائب .

أنا لا أستطيع أن أنكر أنه قد حدثت بعض المظالم فى السودان فى العهد البائد . ولكن هذا العهد كان شؤماً علينا وعلى إخواننا سواء بسواء . فقدكان حكامنا وحكامهم (وأقصدالمديرين ورجال الادارة من ظلام الاتراك يسوموننا جميعاً سوء العذاب . وفى الوقت الذى كان يستعمل فيه (عقاب الهرة) فى الجنوب كانت (الفلقة والكرباج) هى العقوبة السائدة بالشمال . وكانت سبة (عبد) بالسودان تقابلها سبة (فلاح) فى مصر . ولم يكد السودان يعرف حكمداراً مصرياً صميما من عهد محمد على فلا يمكن والحالة هذه أن تؤاخذ مصر بجريرة الماضى أياً كان نوع المظالم التى حدثت فيه لانها بريئة منها ولا يد لها فيها . هكذا دونا فى مذكرة الضباط التى تقدمت للوفد فى سبتمبر سنة ١٩٢٠ .

ومع هذا لو أننا قارنا بين العهدين المصرى والانكليزى لكانت النتيجة فى جانب مصر دون انكلترا فقد كان للسودان فى عهد الظلم (المصرى) مجلس شورى ينعقد فى كل عام للنظر فى شؤونه وكان أعضاؤه من خاصة أهله . يقابله اليوم مجلس الحاكم العام وأعضاؤه جميعاً من الانكليز ، وكانت المظالم التى تحدث هناك لا تصل الى مسامع مصر ولو اتصلت بها ماسكتت عنها بدليل أن محمد على ذهب بنفسه

الى السودان لرأب ماصدعه الدفتردار ولم يدع سبيلا لارضاء أهله إلا سلكه .

ولما شكا الناس فداحة الضرائب لسعيد باشا رفع أكثرها وأمر بتخفيض الباقى ، وبلغ من فرط حلمه ورحمته أن أصدر عفواً شاملا عن خلفاء الملك نمر قاتل الامير الشهيد اسماعيل .

وبمجرد اتهام ممتاز باشا وهو الحكمدار العام بالظلم والرشوة أمرت مصر بسجنه بسجن الخرطوم والتحقيق معه فيما نسب اليه ولم يشفع له سمو مركزه أو يحل دون ذلك . ولولا أن عاجله الموت فى سجنه لحوكم وحكم عليه جزاء وفاقا .

ولقد كان فى البرلمان المصرى الاول عشرون نائباً عن السودان مما يؤيد تأييداً قاطعاً شعور مصر منقديم بوحدة البلدين .

والسودان منذ تولى الانجليز إدارته لم يعرف من أبنائه مديراً ولا وكيلا ولا مفتشاً ولا ضابطاً عظيما ولا موظفاً كبيراً حتى ولا مأموراً .

أما فى عهد الظلم (المصرى) فكان :ــ

الزبير باشا و سليمان بك الزبير و ادريس بك ابتر و يوسف باشا الشلالى مديرين على التوالى لبحر الغزال .

ثم كان :ـ الشلالى باشا وبعده بساطى بك مديرين لسنار .

والياس باشا أم برير مديراً لكردفان .

وحسين باشا خليفة مديراً لبربر .

والطيب بك عبدالله مديراً لفاشوده .

ومحمد بك خالد زقل مديراً لدارة .

والنور بك عنقره مديراً لكبكبيه .

والسعيد بك حسين وآدم بك عامر مديرين بمديريات دارفور .

واحمد باشا أبو سن ومحمود بك احمدانى واحمد بك جلاب .

مديرين بالعاقب للخرطوم .

وكان محمدبك الجزولى وكيلا لمديرية الخرطوم.

واحمد بك مكوار وكيلا لمديرية سنار .

وعمر بك العمرابى وكيلا لمديرية بربر .

وكان على بك عمارة أبو سن مديراً للجمارك.

وحمد بك التلب رئيساً لمجلس الاستئناف .

ومحمد بك خوجلى قاضياً للخرطوم.

وعثمان بك حاج حامد قاضياً لخط الاستواء .

والفكى (الفقيه) الشيخ الامين الضرير شيخاً للاسلام .

والبكوات : أبو بكر الجركوك والخليفة ود أرباب ومحمد عبد الرحمن

ود البشير وادريس النور وعبدالرحمن بان النقا
والفضل ابراهيم وغيرهم أعضاء بمجلس الاستئناف .
وكان بساطى بك المحسى باشكاتباً لمديرية الخرطوم.
والعوضى بك المرضى باشكاتباً لمديرية كسلا .
وحسن افندى الشريف معاوناً لمديرية بربر .
ومحمد افندى النصرى معاوناً لمديرية بحر الغزال . . . الخ

وكان من بين القواد العظام :ـ

ألماظ باشا . وآدم باشا . وفرج الله باشا . وفرج الزيني باشا . ويوسف الشلالى باشا . وصالح المك باشا . والسعيد حسين باشا . وحسن ابراهيم باشا . ومحمد على حسين باشا . وخشم الموس باشا . والنور بك محمد . وسرور بك بهجت . وبخيت بك بطراكى . ومحمد بك السيد . وسليم بك مطر . والنور بك عنقرة . وفرج بك عزازى . وعشرات سواهم.

وكان جميع عمد القبائل ونظار الاقسام وخاصة أهل البلاد وكبار الموظفين المدنيين يحملون الرتب والنياشين أسوة بالمصريين بل ربما زاد عدد حامليها من الاهلين على عددهم من أعيان الفلاحين بمصر وأذكر منهم على سبيل المثال :ـ

بشير بك ود عقيد عميد الجعليين . وعبد القادر باشا ود الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وأول معاون سودانى للحكمدارية .

وادريس بك ود عدلان زعيم الفونج ، واحمد بك ابو جن عمدة قبيلة الحمدة ، وعلى بك البخيت ناظر بني عامر ، وعبد القادر بك ايله عمدة الخلانقة ، ومحمد موسى زعيم الهدندوة ؛ واحمد بك دفع الله عين أعيان كردفان ، ومحمد بك ياسين ناظر قسم كردفان ، واحمد باشا أبو سن عمدة الشكرية ، وابنه عوض الكريم باشا ، وحفيده على بك ، وكيكوم بك ملك الشلوك ، وعلى بك سالم عمدة الكبابيش ، وحسن بك أم كادوك عمدة البرنو ، وصالح بك شنقة ناظر القلابات . ومحمود بك زايد عمدة الضباينة ، وبشارى بك بكير عمدة بنى هلبة ، والارباب بك ود دفع الله ، وعلى بك الخبير وابراهيم بك البرديني ، ومحمد باشا ابوزيد ، ومحمد بك البلالى ، وقناوى بك ابو عمورى ، وصالح بك خليفه ، ومحمد باشا امام الشهير بالخبير وغيرهم ممن يعدون بالمئات .

وكان لهؤلاء وأمثالهم من العمد والنظار والزعماء ومن أسلفت من كبار الضباط والموظفين القول الفصل فى شؤون بلادهم . بل كان من الضباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعلياً فى الثورة العرابية لان مصر لم تكن تفرق بين المصرى والسودانى ولا بين الابيض والاسود من أبنائها .

فما أن لعبت أصبع الانكليز فى إدارة البلاد وآلت ولاية الحكم الى غوردون للمرة الاولى فى عصر اسماعيل . بناء على رجاء ولى عهد انكلترا ووساطته . أقصى المصريين والسودانيين عن الوظائف الكبرى وكف أيديهم عن ادارته ونصب بدلهم من الاجانب .

جسي باشا، وجيكار باشا، والدكتور شنيتزر (أمين باشا)، وفردريك روسي، وسلاطين باشا، ولبتون بك، ورالبا بك، ومسنجر باشا، وتشرمسيد باشا، ومارنوا بك، ودي كوتلجن، وكوستي بك، وميسون بك، وملبانو بك، ومركوبولى بك، والدكتور زوربخين بك، ومسداليه بك، واملياني دانزنجر، وبرجوف بك، وجوتفرث روث، وجوست جويزى، وسواهم.

واتخذ منهم مديرين ومحافظين ووكلاء وأطباء ومفتشين وكتبة ومعاونين . وهم مابين انكليزى وإيطالى ونمساوى وألمانى وزومى وما لا أعرف أيضاً .

فاختلت ادارة السودان وكان لابد من اختلال العالم كله لو قبضت على أزمة الحكم فيه عصبة أمم من الخليط الذى ذكرت، فما بالك والسودان لايعرف هؤلاء ولا هم يعرفونه ! !

واذا كان السودانيون قد نقموا من سعيد باشا تعيين أراكيل بك حاكما عليهم ـ وهو شرقى مثلهم ـ ولولا حكمة أراكيل وحسن تصرفه لقامت الثورة . فكيف لا يثورون وقد أصبح الحكام بأجمعهم من الاجانب الذين لا يفقهون لغة البلاد ولا يفهمون دينها ولا يعقلون شيئاً من عاداتها وأخلاق أهلها .

فهؤلاء هم أهم أسباب الثورة وفى أعناقهم ضحاياها وعلى رؤوسهم تنصب دماء شهدائها من الجانبين المصرى والسودانى .

عهـــــد الثـــــــورات

والثـــورة المهـــدية

كان السودان وديعاً هادئاً لا يكاد أحد من سكانه يتوهم الخروج على أولى الامر أو تحدثه نفسه بالجنوح الى الثورة . فما عتم أن حل به (لورنس القرن التاسع عشر) وأعنى به غوردون . باسم القضاء على تجارة الرقيق حتى قام ينكل بالجلابة وآلهم وذويهم وطفق يقضى عليهم بالاعدام ويصادر أموالهم ويستصفى أملاكهم ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر . البرىء منهم بجريرة المذنب . فى الوقت الذى كان يعلم فيه حق العلم أن أبناء جلدته بالمستعمرات الانكليزية يأخذون امثال هؤلاء بالهوادة واللين متوخين فى ذلك كل ما أوتوا من دراية وخبرة بطبائع الامم . فكان هذا العمل من جانبه هو ومن عددت من أعوانه أول ما أثار علينا ثائرة السودانيين إذ أيقنوا أن مصر قد آثرت أن تستعين بأولئك الاجانب (الكفار) للانتقام منهم والعبث بدينهم . وقد قيل إن هذا كان من الاسباب الرئيسية التى دعت (عثمان دقنة) أخطر ثوار السودان وأشد أنصار المهدية وأعظم قواد المهدى الى الاندماج فى الثورة والقيام بنصرتها بكل ما أوتى من جلد وشجاعة ودهاء لأن مفتشاً من عمال غوردون صادر أمواله ظلماً وعدوانا ، وكانت تبلغ زهاء العشرة آلاف جنيه لمجرد الاشتباه فى اشتغاله بتجارة الرقيق . فأحفظه ذلك على الحكومة وما برح يتربص بها الدوائر حتى قام المهدى فناصره بكل قواه

وانتهز جماعة الموتورين والاشقياء تلك الفرصة وقاموا بالثورة تلو الثورة فقام سليمان الزبير فى بحر الغزال وخلفه رابح . وثار أهل دارفور بزعامة أميرهم هرون الرشيد . كما ثار أهل كردفان برئاسة الصباحى . ولم يكتف لورنس القرن التاسع عشر باذكاء نار كل تلك الثورات . بل قام ينـاوىء الاحباش ويستثيرهم للخلاف مع مصر ففشلت دسائسه ودارت عليه الدائرة ولم يجد بداً من الاستقالة ورجع الى قومه ملوماً محسوراً . وأبت الاقدار إلا أن تجعله وقوداً للنار التى أشعلها إذ عاد الى السودان لاجلاء المصريين عنه فلقى حتفه فيه .

وانتهز المهـــدى بدوره تلك الفرصة النادرة وقام يدعو قومه للتخلص من تلك الادارة العجيبة ولم يجد بداً من التترس بالدين ليقينـه بأنه الوتر الحساس فى البلاد .

تطور الشعور تطوراً غريباً . فبعـد أن كان المثـل المحبوب لدى عامة أهل السودان (الترك لبسونا القميص وعلمونا الحديث) صاروا يتنافسون فى إيراد الامثـال الدالة على الحفيظة والنقمة من المصريين والتحرق لقتالهم .

فبينما ترى فريقا يقول : (هواى هواى أسير للمهدى فى قدير) إذا بك ترى الثـانى ينشد (بشاير الخير جات لينا ـ واليوم ظهـر مهدينا) بينما الثـالث يقسم (وحاة قولى صواب ـ خنـق قيركـم غاب) فيردد الرابـع (ألف فى تربة ولا قـرش خـردة فى طلبـة) . ويترنم الخـامس بقوله (ود الريف شين جابه حربه وكوكاب فى جعابه) . . . الخ

استعرت نيران الثورة إذن . وكانت ولاية الحكم قد آلت بعد استقالة غوردون الى رجل هو أضعف الناس طراً لا الولاة فقط . ذلكم هو رؤوف باشا الذى وصفته الجمعية الوطنية المصرية السودانية بالخرطوم أليق وصف وأصدقه إذ وجهت اليه منشوراً عنوانه : (كنا نحسبك رؤوفاً فرأيناك خروفا) . والحق أنه كان فى ضعف النعاج .

ذهبت طائفة من المؤرخين الى أنه بعد ما أخطأ الخطيئة الأولى التى ترتب عليها اشتغال الثورة وبلوغها أشدها ، وهى إرساله فصيلتين (بلوكين) من الجنود النظامية تحت إمرة ضابطين الى جزيرة آبا وإسراره الى كل منهما بأنه قائد الحملة وتفهيم أبى السعود العقاد بك معاون الحكمدارية فى نفس الوقت أنه القائد الأعلى لكليهما . الأمر الذى دعا الى تنازع الرئاسة فالفشل فذهاب الريح وتسبب عن ذلك أول هزيمة منى بها الجيش المصرى فى تاريخه المشرف بالسودان . كما نجم عنه علو كلمة المهدى وارتفاع شأنه وبعد صيته .

على أثر تلك النكبة عقد مجلساً استشارياً من خاصة أهل الخرطوم وذوى الرأى فيها فقال له الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان يومئذ (يحسن بمولاى الحكمدار أن يتولى القيادة بنفسه ليستأصل الشر من جذوره ويقضى على الثورة فى مهدها قبل أن تستفحل) . فرد عليه قائلا (خسئت أيها الشيخ أتريد أن ترمل زوجى وتيتم أطفالى) ! ! ! ؟

هذا هو الحاكم الشجاع والقائد الباسل الذى لم يؤثر عنه طوال حياته إلا ترؤسه المجلس العسكرى العالى الذى انعقد لمحاكمة عرابى باشا والحكم عليه بالاعدام .

فاما توالت الهزائم شعر العرابيون بخطورة الثورة وعلموا بما كان من جبن رؤوف وسوء تصرفه فبعثوا بخير القواد الى هناك رغم المحنة التى كانوا يجتازونها فى ذلك الوقت . وذهب البطل عبد القادر باشا حامى فقبض على ناصية الحال وأمن الخرطوم والجزيرة بعد ما أوشكتا على السقوط وسهد المهدى وأقض مضجعه ونكل بأنصاره الواحد أثر الآخر حتى جعله يتوسل الى المولى فى كل صلاة بقوله : (اللهم ياقوى ياقادر اكفنا عبد القادر) .

وبعث القائد المجاهد فى طلب خمسة عشر ألفاً من الجنود المصرية ليضرب بهم المهدى الضربة القاضية ويديل دولته بالسودان وكان الأمر قد آل الى الانكليز . فأبت عليه السياسة الانكليزية ذلك ولم تكتف برفض طلبه بل اتهمته لدى الخديو توفيق وحكومته الضعيفة بالجنوح الى الاستقلال . فأقصى عن وظيفته وولى علاء الدين باشا مكانه وأرسلت اليه ١٢٩٠٠ جندى من فلول جيش عرابى ليوردها هكس موارد البوار والدمار . وأبى هكس إلا أن تكون له القيادة أو يستقيل فنزلت مصر المهيضة على ارادته وأقرت جعله قائداً أول وعلاء الدين قائداً ثانياً وضربت بنصائح عبد القادر باشا البطل المجرب عرض الافق فكانت النتيجة المعروفة التى تنشق لها مرارة كل ذى قلب .

ورأت السياسة الاستعمارية أن تتم النكبة فاستقدمت غوردون وبعثت به الى الخرطوم لاجلاء المصريين البــــاقين بالسودان ظاهراً ولافنائهم والقضاء عليهم فى الواقع .

ولاقى المصريون عسكريين ومدنيين الأمرّين على يديه طول مدة الحصار . ومن الغريب أنه فى الوقت الذى كان الموت يختطف منهم بالالوف . وفى الوقت الذى قبلوا فيه عن طيب خاطر أن تكون جراية الجنــدى المصرى مائة درهم من الذرة فى حــين أن زميــله من السودانيين والاتراك والمغاربة كانت جرايته مائة وخمسين . وفى الوقت الذى نفدت فيه المؤونة وقنعوا بأكل الصمغ والجمار والجيف والجلود . بينما وجد لدى قائدهم الذى قيل عنــه كذباً إنه شارك أبأس جنوده شظف العيش ومرارة الجوع . فى يوم قتله (طبق به بيض مقلى بالسمن وبجانبه علبة من اللحوم فى وسطها شوكة وقطعة من السكر فى طبق آخر) والذى قال فوزى باشا إنه كان يجـــد له فى كل يومين أو ثلاثة دجاجة هزيلة أو زوجاً من الحمام الطاعن فى السن .

أقول من الغريب أنه فى هذا الوقت . وبالرغم عن الطاعة العمياء والصبر الجميل والقناعة المدهشة . صفات الجندى المصرى من قديم الزمان . كتب القائد الشريف الوفى المخلص الى اللورد واسلى قائد حملة إنقاذه فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ كتاباً يقول فيه (لاتدعوا العساكر المصرية تأتى الى هنا . تسلموا قيادة الوابورات منهم وأخرجوهم منها فانه لافائدة فيهم) .وهو يقصـــد بهذا جنود بعثـــة

نصحى باشا الذى نجح حيث فشل استيوارت الانكليزى .

ولكن الحملة . لأمر ما . لم تنقذه فمات ومات معه أولئك الجنود البواسل (الذين لافائدة فيهم) بعد ما دافعوا عنه وعن الخرطوم أعظم دفاع ولم ينج منهم إلا طويل العمر طويل أيام البؤس والشقاء والويل والضراء .

سقطت الخرطوم وبسقوطها سقط السودان كله . بقطع النظر عن حاميتي كسلا وسنار . فاطمأنت السياسة الانكليزية وراحت تبيت الغدر من جديد للمضى فى تدبيراتها .

وحدث ماحدث بعد ذلك مما هو معروف ومشهور . وأعيد فتح السودان بجنود مصرية وأموال مصرية ثم كانت اتفاقية سنة ١٨٩٩ م المشئومة . فماذا تم بالسودان من يومها الى الآن ولم يكن بمال مصر وأيدى المصريين — ؟ ؟ ؟

ادارة الســـــــــــــودان

من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٢٤

أنفقت مصر ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيـه لمد السكك الحـديدية . تلك السكك التى قال عنها أحد الضباط الذين عملوا فى انشائها إنه توجد تحت كل شبر منها جثة جندى مصرى . وبلغ مجموع ما أنفق فى سبيل استعادة السودان ١١ مليوناً من الجنيهات وبلغت تـكاليف ميناء بور سودان مليوناً ومثل ذلك لمد سكتها الحديدية من العطبرة اليها .

وقامت مصلحة واحدة . هى مصلحة الاشغال العسكرية • بعمل المنشآت التالية فى مدينة الخرطوم وحدها فى ربع قرن من الزمان . (حديث صاحب السعادة اللواء محمد لبيب الشاهد باشا المنشور بالعدد ٨٣ من الدنيا المصورة الصادرة بتاريخ ٢٧ يوليه سنة ١٩٣٠) :ـــ

سراى الحاكم العام . دواوين المالية والحربية والحقانية والداخلية والزراعة والبريد والتلغراف . ومساكن لكبار موظفيها (وكلهم من الانكليز) . مكاتب تسجيل الاراضى • مخازن مصلحة الصحة . المطبعة الاميرية • قشلاقات سعيد واسماعيل وتوفيق وعباس بضواحى الخرطوم • ثلاثة قشلاقات كبرى بالخرطوم بحرى للطوبجية • خمسة قشلاقات للانكليز • مساكن لضباطهم · مخازن الاسلحة والمهمات والجبخانة والبارود • طابيـة الدفاع الكبرى • مخازن المهمات والورش • قشلاق قسم الاشغال العسكرية • ورش ومخازن قسم الاشغال الملكية • السجن العمومى · كلية غوردون • جامع

الخرطوم . مساكن لصف الضباط الانكليز . مخازن تعيينات الجيش المصرى . مخازن وورش مصلحة وابورات النيل والمراكب . رصيف أمام مدينة الخرطوم . مستشفى الجيش . مديرية الخرطوم . مساكن لكبار موظفيها . ادارة المصلحة البيطرية ومستشفاها . قشلاقات البيادة بأم درمان . قشلاق البيادة الراكبة .

ذلك ماتم فى الخرطوم وحدها . فما بالك بما أنشىء فى جميع الانحاء الاخرى وعلى الاخص بحلفا وأبى حمد والعطبرة وشندى وخور شمبات وواد مدنى وكسلا والقضارف وسواكن وبورسودان والابيض والنهود وبارا والدلنج وتالودى والدويم والتوفيقية والسوباط والبيبور وبلاد دارفور وبحر الغزال ومنجلا ؟

لقد كان للضباط والموظفين الانكليز فى كل جهة من هذه أحياء مستقلة قائمة بذاتها فى أجمل البقاع ملأى بالدور والقصور محفوفة بالحدائق النضرة دونها قصور الزمالك (وفلّات) المعادى .

وبينما يرابط الجنود البريطانيون بالخرطوم وبعض الحواضر ويستمتعون بسكنى أجمل الاحياء وأرقى المنازل ولهم أطيب العيش وأسعد الحياة حين يريحون وحين يسرحون . كان جنود أورطة السكة الحديدية وهى أكبر أورط الجيش المصرى، يقاسون شظف العيش ومر الحياة فى السهر على صيانة تلك السكك وتعهدها بالاصلاح كلما دمرتها السيول أو جرفتها الرياح أو غمرتها الرمال متحملين فى ذلك كل اعباء العمل المضنى الشاق فى حمارة القيظ وزمهرير البرد بين عصف الزوابع

وقصف الرعود وويلات (الهبوب).

وكان اخوانهم من جنود باقى الاورط يقومون فى الحين بعد الحين باخماد الحركات الثورية الداخلية التى زادت على المائة والعشرين حتى ابعاد الجيش المصرى عن السودان. وكان عليها الغرم دائماً. وللادارة الانكليزية (حكومة السودان) الغنم على كل حال.

أما عن السياسة الانكليزية فى ادارة السودان فحدث ولا حرج عن طرائق الاستعمار وسبل الاستغلال وضروب الخديعة والختال. وحسبك أن تطلع فيما يلى على بضع فقرات من كتب بعثت بها الى صديق لى فى سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٤ طلب الى أن أعرفه عن الحالة فى السودان وكيفية ادارته :ـ

١ ـــ من كتاب

قد تظن أن معلوماتى محدودة لأنى لا أجوب أنحاء السودان فلا أستطيع أن أطرفك بوصف القليل من مختلف المناظر والاصقاع ولا الكثير من العوائد والطباع. وهذا صحيح من هذه الوجهة فقط، أما من من وجهة آثار السياسة الانكليزية فى البلاد وميول أهلها وذلك مابهمك وبهم مصر والمصريين. فانى أستطيع أن أحدثك عن البلاد من أقصاها الى أقصاها اعتماداً على أن الابيض التي أقيم بها ليست ثالثة مدائن السودان بعدالخرطوم وأم درمان فحسب. بل على كونها الحد الفاصل بين المدنية

والهمجية وجماع مختلف القبائل العربية والزنجية وطريق القوافل الذاهبة والآيبة من دارفور وجبال النوبة وبحر الغزال. وحاضرة أكبر المديريات عمرانا وأعظمها شأناً . والعاصمة الاولى للمهدية فى أنضر أيامها وأزهر أوقاتها . وفوق ذلك . وا أسفاه . أوسع مقبرة ضمت رفات أولئك الابطال الشهداء الذين رووا رمال صحراوات كردفان بدمائهم الزكية تفانياً فى الدفاع عن علم مصرنا المحبوبة الذى طوى هنالك لآخر مرة فى موقعة شيكان على بعد مرحلتين من هنا فى مأساة هكس المشهورة . ولربما أحدثك عنها قريبا فقد وعدنى أحد الاعيان بأن يرينى بقايا عظام قوى التى لم يعن أحد بدفنها حتى يومنا هذا .

فأنت ترى هنا . فى أسواق الابيض . من الاعراب البقارى والجعلى والشايقى والجميعابى والجوامعى والزيقانى الى جانب اخوانهم من عبيد النوبة وبحر الغزال والجهات الاستوائية وأشباههم من الفلاتة والتكارنة والفوراويين (آل دارفور) والبرقاويين وسواهم من الاحباش والمولدين . وترى الجميع على اختلاف اجناسهم وتعدد صفاتهم وتبلبل ألسنتهم والاعراب منهم على الاخص . وهم العنصر السائد بكردفان . يتدفقون من كل الآفاق على الابيض فى زمن الخريف لتصريف بضاعتهم من الدواجن والالبان وما اليها وابتياع حاجاتهم من الشاى والسكر أولا وقبل كل شىء فالملابس ونحوها من ضروريات الحياة . وهم فى أثناء ذلك يختلطون بنا معشر المصريين لبيع تجارتهم .

ولا مندوحة لمثلى ممن وقفوا أنفسهم على خدمة الوطن وانتهاز كل فرصة لرفع شأنه ومحاولة إيصال النفع اليه بكل الطرق الممكنة من الاحتكاك بكل هؤلاء والتفاهم معهم للوقوف على آرائهم وتعرف سرائرهم . ومع أنك تستطيع أن تقنع نفسك بأنه من أيسر الامور لديك أن تستطلع أخص خصائص نفسية أعرابى ساذج من هؤلاء بقدح من الشاى وقطعة من السكر فانك متى دخلت معه فى صميم الموضوع وأدرك بعض غرضك بذكائه الفطرى ألفيته يراوغك ويستعمل معك كل ما أوتى من ضروب المكر والدهاء ووجدت نفسك أمام مشكلة عويصة الحل وأنك مابرحت بعلمك ومدنيتك أعجز من أن تقف على سريرة بقارى أبله .

إى وربى ياصديق هذا هو الواقع ، فبشىء من الاكرام البسيط الذى ما جاوز قدحاً من الشاى وبعض الهشاشة استطعت من أسابيع أن ابتاع من أعرابى عشرين دجاجة بخمسة عشر قرشاً وكان قد قبل اثنى عشر قرشاً فقط وأصبحت لديه من أحب عملائه . ومنذ أيام قليلة أبى كل الاباء أن يذكر لى شيئاً من تاريخه فى جيش المهدية وحقيقة عواطف قبيلته نحو المصريين مع وعدى إياه باعطائه أقة من السكر ورطلا من الشاى إلا إذا أقسمت له على القرآن الكريم بأنى آمن بعهديهم إيماناً حقيقياً .

لهذا لايعلم إلا الله وحده كم ألاقى فى سبيلى من المشقة والخجل بل من الهزء والسخرية ، ولكن كل شىء يحتمل فى سبيل مصر .

٢ ـ من كتاب ثان

يؤسفني أن أصارحك بأني أشعر هنا بحرارة الغربة وألم الاغتراب ، وسيدهشك هذا القول مني وسوف تقول يا أسفا على من يرى من حق مصر أن تسترجع أوغندا فوق زيلع وهرر وبربرة ومصوع . ولكن دهشتك ستزول حتما إن أنت علمت أننا لا نقيم في السودان المصرى بل في مستعمرة انكليزية أظهر ظواهرها صلف الحاكمين ونفور المحكومين لا من هؤلاء وإنما منا نحن المصريين .

ولقد حاولت أن أقف على سر هذا الشعور الغريب ففهمت أن منشأه الاعتقاد . الخاطىء أو الصحيح . بأننا أداة لتمكين المستعمرين من رقاب المستعمرين . وآية ذلك عندهم أنه كلما هم السودانيون بخلع نير الانكليز أصلتهم النيران أيد مصرية ورؤوس انكليزية . وقد حدث هذا أكثر من مائة وعشرين مرة في بحر الخمسة والعشرين عاما الفائتة.

سألت منذ بضعة أيام سودانياً نابهاً من الاعيان اعتدت أن أحييه في طريقي الى عملي كلما رأيته جالساً مع ضيفانه أمام داره ولاحظت أنه يتفرد أحياناً بالرد على تحيتي دون جلسائه . في حين أن بعضهم ينظر إلى بالنظر الشذر وأكاد أتبين الجفوة والبغضاء في عينيه فأكاد بدورى أتميز من الغيظ . قلت (أما يعرف جلساؤك قول الله تعالى ـ واذا حييتم بتحية ـ الآية) ؟

قال يعرفونها كما يعرفون أنفسهم . قلت فما بالهم لايردون تحيتى وإن ردها البعض فبفتور وجفاء .

قال : أما الذين لايردون فيعتقدون أنك (كافر) كقومك لأن العامة يفهمون أن جميع الترك وأولاد الريف كفار لأنهم استنصروا بالغوردون وأهله فى حكمهم . وأما الذين يردون فقد رآك بعضهم تصلى فى الجامع فعلم أنك مسلم وسمع من نابهى قومنا من أصدقائى وأصدقائك ثناء عليك . والحق أننا جميعاً نعتقد أنكم أصل بلائنا وسبب شقائنا . فلو كفيتمونا جندكم لاستطعنا أن نجلى هؤلاء الكفرة . ويعنى الانكليز . عن بلادنا ضرباً بالعصى والسياط . وفوق هذا فان الاغلبية تعتقد أنكم لاتحيونا إلا رغباً أو رهباً كما يلقى الفتات الى الكلاب الضالة إما تقرباً اليها أو خوفاً منها . فأنتم تحتقروننا ونحن نجتويكم .

٣ ـ من كتاب ثالث

استأثر الانكليز بجميع الوظائف العسكرية والادارية الكبرى ولم يتركوا للمصريين ولا للسودانيين شيئاً يذكر . فهنالك قواد الجيش والحاكم العام وأركان حربه وكل أياديه وألسنته وجميع حاشيته وبطانته . وهنالك السكرتير المالى والسكرتير القضائى ومدير المخابرات ومديرو جميع الادارات ورؤساء كافة المصالح ومديرو سائر المديريات ووكلاؤهم . كل هؤلاء من الانكليز .

وفوق ذلك فان لكل مركز مفتشاً ولبعضها اثنين أو أكثر

منهم أيضاً والى جانب هؤلاء وكيـــل مفتش ومأمور ونائب مأمور مصريون فى بعض المديريات ولا فيها كلها .

أما وظيفة وكيل مفتش التى يشغلها فى القليـــل ضابط مصرى برتبة بكباشى فلا أدرى ماهيتها الى الآن وكل ما استطعت أن أعرفه عن عمل أحدهم أنه كان يقوم بتوزيع السكر على التجار .

ولتعلم أن السكر وزيت البترول (الغاز) وبعض المواد الهامة الاخرى تحتكرها الحكومة والسعر الحالى (فى سنة ١٩٢٣) ثلاثة عشر قرشاً صحيحاً لأقة السكر واثنان وأربعون لصفيحة زيت البترول .

وقد اتصل بى أن لهؤلاء الوكلاء سلطة قاض من الدرجة الثانية (الفصـــل فى القضايا العديمة الاهمية والغرامة الى خمســـة جنيهات) .

وليس بى من حاجة الى القول بأن أحكامهم يضرب بها عرض الحائط متى رأت السياسة الانكليزية حاجة الى ذلك .

وأذكر والشىء بالشىء يذكر . أن قائمقام مصرياً معروفاً هو الآن برتبة لواء كان الى سنة ١٩٢١ يعمل كوكيل مفتش تحت رئاسة مفتش انكليزى برتبة بكباشى ، فلما ترقى المصرى الى رتبة أميرألاى ترقى رئيسه الى رتبة قائمقام ، ولما ترقى الوكيل الى رتبة لواء أصبحت المسألة مكشوفة ومنتقدة فأوجدوا لها حلا بديعاً وذلك بجعل وظيفة المفتش ملكية .

أما وظيفـة المأمور فأشبه شىء بوظيفة معاون الادارة عندنا

أى محقق ادارى . إلا أن مأمورينا هنا يضرب بتحقيقاتهم عرض الحائط أيضاً متى رأت السياسة الانكليزية لزوماً لذلك .

وقد رؤى أخيراً تنصيب مأمورين ووكلاء من السودانيين . وهى سياسة ظاهرها العدل وباطنها الخبث . معناها السطحى إحلال الوطنيين محل (الاجانب) وحقيقتهـــا خلق النفور بين المصريين والسودانيين . فهم لايضعون فى هذه المناصب أبناء الأسر والقبائل العربية المعروفة وإنما ينصبون الزنوج وأشباه الزنوج ممن لم ينالوا أى قسط من التعليم والتهذيب لأن معظمهم من خـــدم وحشم كبار الموظفين الانكليز . ولا ريب أن عقلية هؤلاء لايمكن أن تتفق هى وعقلية الضباط المصريين فيحصل الخلاف والشقاق ويعقبهما التحاكم الى المفتش أو المدير الانكليزى ويتشيع هـذا أو ذاك للسودانى دائماً . فيورث تشيعه الضغينة والحقد فى نفس المتحاكمين . وهكذا قدر فى برنامج السياسة البريطانية أن يبغضنا من السودانيين الحاكم والمحكوم .

ونفس سياسة وضع المأمورين من المصريين ذات معان . فالمأمور ومساعدوه منوط بهم تحصيل العشور ، وفى هـذا الوقت يمنحون أوسع السلطات فيضربون ويجلدون ويعذبون ويسجنون ويطرقون كل السبل لتأدية واجبهم فيضج الاهالى بالشكوى للمفتشين والمديرين ويتنصل هؤلاء من التبعة . وقد يوبخ المشكو فى حقه علناً من نفس آمره باتخاذ هاته الاجراءات القاسية . ويعفى المتأخرون ويطلق سراح المسجونين ويستعطف المعذبون والمهانون ويسر اليهم

أن هكذا يحكم المصريون · فيدعون للانجليز بالخير وويل للمصريين .

ومما يؤسف له أشد الاسف أن أغلبية المأمورين المصريين تتحمل هذه التبعات الشائنة راضية صاغرة وما سمعت أن أحداً منهم أخذته العزة الوطنية والحمية المصرية فوقف موقف الاباء والشمم وأظهر بعض ماتقضى به الشهامة العسكرية . اللهم إلا الضابط الوطني العامل اليوزباشي (صاغ الآن) على افندى موسى مذ كان نائباً لمأمور الابيض وآخرون لا يكادون يعرفون لأنهم أنصاف شجعان .

٤ ـ من كتاب رابع

أتريد أن أدلك على شر مما ذكرته لك فى كتبي السابقة ؟ ؟ ؟ إذن أقسم لك أن أصدق مايوصف به السودان انه بلاد الانقسام · بلاد الشقاق والنفاق . كما سمى العراق قديماً الامام على كرم الله وجهه .

فهناك انقسام فى صفوف الضباط وانقسام فى صفوف الموظفين وانقسام فى صفوف الاهالى وانقسام فى صفوف القبائل وانقسام فى صفوف العشائر وانقسام فى كل شيء وانقسام فى كل زمان وانقسام فى كل مكان .

فالشقاق سائد بين الضباط المصريين والضباط السودانيين ومستحكم بين سائر الضباط والموظفين المدنيين .

وهناك شقاق بين الموظفين أنفسهم . فلا تكاد ترى كاتباً يتفق

مع مترجم ، وهناك شقاق آخر بين موظفى الحكومة المصرية وموظفى حكومة السودان وشقاق أكبر بين العرب والزنوج . وشقاق عام بين كل قبيلة وأختها . فسياسة (فرّق تسد) ظاهرة للعيان .

وهــذا هو السر فى أن كلمة انكلترا هى العليا وكلمتنا هى السفلى . وحق والله للانجليز أن يترنموا دائماً بنشيدهم القــــوى (احكمى يابريطانيا) .

٥ ـ من كتاب خامس

سمعت طرفاً من أنواع العدالة الانكليزية فى ادارة السودان ليس لانكلترا بعدها أن تعيرنا بالظلم :ـ

(ا) أتعرف التحية التى فرضها أعدل مستعمرى العالم على عبيد النوبة الذين اشتهروا بشدة البأس وقوة المراس ؟

يجب على النوبى متى رأى رجلا من رجال الحكومة أن يقف فى الحال ويرمى سلاحه على الارض ويرفع يديه الى مافوق رأسه ويخرج لسانه . ومعنى هذا أنه سلم سلاحه وأصبح مجرداً وكف عن السب والشتم وقدم فروض العبودية والخضوع .

أفكان يفعل هـذا أقسى الحكام الاتراك فى اتعس ايام جبروتهم ؟ كلا ورب الكعبة .

(ب) للمفتش الانجليزى أن يفرض الغرامة التى يراها ومن اروع انواع العدالة . ان بعض هؤلاء المفتشين يفرضـــها على

الظالم والمظلوم والشهود أيضا .

(ج) مفروض على الاهالى والموظفين المدنيين تحية كل موظف انجليزى يقابلونه فى طريقهم ويجب على كل راكب بالغاً مابلغ شأنه أن يترجل متى رأى أحداً منهم .

(د) نصبوا من الوطنيين عمداًو نظاراً على القرى والحلال وأعطوا لصنائعهم من أولئك من السلطان فوق ما كان للمماليك بمصر . وشر ما سمعته أن للبعض أن يفرض الغرامة على من يشاء من رعاياه ويأخذها لنفسه . وأغرب ماعلمته أن أحدهم استقام له الامر فى حلته وانقطع دابر الشكايا من فرط ظلمه فضاقت به الحيل واحتاج الى المال فأتى بأحد المغضوب عليهم من قومه وقال له : بلغني أنك قد أسأت فيما مضى الى المرحوم فلان وعليك الآن أن تدفع غرامة قدرها كذا . فجن جنون الرجل وذهب يشكو الى المفتش البريطانى العادل فكان جوابه أن فلاناً ثقة ولا سبيل الى تكذيبه وأجبره على دفع الغرامة اليه فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . أفهذا أبأس ياصديقى أم الخروف فى حكاية الذئب والحمل المشهورة ؟ . لاريب عندى أن هذا أبأس . لأن ذاك لم يحتكم الى أحد وكان خصمه هو الحكم . أما هذا فقد احتكم ولكن الى اظلم واغشم .

فمن هؤلاء العمد والنظار انتخب الوفد السودانى الذى ذهب الى انكلترا فى سنة ١٩١٩ ولقن إعلان غضبه على المصريين وحكمهم ورضائه عن الانجليز وعدلهم . فليفهم المصريون هذا وليعلموا .

٦ ـ من كتاب سادس

أثقل المستعمرون كاهل الاهلين بمختلف الضرائب . فتجبي منهم على الاراضى والمساكن والماشية والانعام والماء والهواء والبول ايضاً . وفوق ذلك تجبي على البيع وعلى الشراء وعلى قطع الاخشاب من الغابات وعلى الانتقال الى مختلف الجهات وعلى كل شيء مهما تفه وحقر .

وإن تنس لاتنس أن ضريبـــة الخروف ثلاثة وثلاثون مليما مع ان متوسط ثمنـه ثلاثة ارباع الريال . وإن تنس لاتنس أن الرجل يقضى جلاء نهار وطرفاً من الليل فى اقتطاع الاخشاب من الغابات فتتقاضى منه الدخوليـة مايقرب من نصف ثمن ما احتطبه . وإن تنس لاتنس أن الشخص إذا بدا له ان يفتح نافذة جديدة لتهوية داره وجب عليه ان يدفع جعلا . وإن تنس لاتنس أن على كل مالك أو مستأجر ان يدفع عشرة قروش شهرياً ضريبـة (جردل البول) وذلك غـير عوائد الاملاك والخفر . وقس على هذا .

ولا تنس ايضاً ان الاحكام العرفية ماتزال مبسوطة على البلاد منـذ الفتح الاخير فلا يستطيع انسان ان يرفع صوته باحتجاج .

فالسودانى . فى الواقع . مغبون ومظلوم . لايستطيع أن يدرأ عن نفسه ذلك الظلم البين إلا بالضراعة الى الله بأن ينقذه من استعمار الانكليز والمصريين على السـواء . بل المصريين على الاخص لأن المصريين هم الذين يتولون جباية تلك الضرائب الفادحة ويستعملون فى جبايتها الطرق التي ذكرتها لك فى كتاب مضى — دع عنك اجور السكك الحديدية والبواخر النيلية فانها فوق مايتصور العقل من الغلاء

٧ ـ من كتاب سابع

يعرف الانكليز أن الدين هو الوتر الحساس فى البلاد ويعلمون علم اليقين أنه ليس أغلى على عرب السودان من دينهم ، وأنهم يبحثون عن حتفهم إن حدثتهم أنفسهم بالتعرض له بأية وسيلة من الوسائل . ولهذا اكتفوا بنشر الدعاية بواسطة المبشرين بين الزنوج بالطرق المعلومة . وبما أن هؤلاء بدورهم لايؤمنون بغير الفتشية ولا يبغون عن دياناتهم حولا . فكل جهد يبذل فى هذا السبيل ضائع لامحالة . وإنما هو ضرب من ضروب الاستعمار وتجربة تأخذ مداها وأداة لاستدرار العطف على حكمهم والرضا بعدلهم ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يفوت عليهم قصدهم ويعكس غرضهم . ومع ذلك فالأمر جدير باهتمام مصر والمصريين بل سائر المسلمين .

٨ ـ من كتاب ثامن

تسألنى عن مبلغ مايقال عن سياسة إخواننا السوريين بالسودان من الصحة . والحق أنى لاأدرى بم أجيبك . فأنا معجب بهم مقدر لجهدهم ونشاطهم . وفيهم الكثيرون من أفاضل الرؤساء وأماجد الزملاء وأماثل النزلاء .

صحيح أنهم يحتلون أغلب المناصب الرئيسية بعد الانجليز فى البلاد ، وصحيح أنهم يساعد بعضهم بعضاً . ولا غبار عليهم فى هذا . فالجنس للجنس أميل . وتلك طبيعة كل أقلية فى كل

مكان وزمان .

أما مايقال عن خدمتهم للسياسة الانكليزية فصحيح أيضاً . لأنهم بحكم وظائفهم . أيدى الانجليز العاملة وألسنتهم الناطقة وهذا مايجعلهم فى نظر المصريين والسودانيين فى مركز لايحسدون عليه .

٩ — من كتاب تاسع

أقيم سياج متين لمنع اختلاط العرب بالزنوج — غير الرقيق — واستحكم العداء بين العنصرين اللذين يتألف منهما السودان . فقالت العرب ليست الزنوج على شىء . وقالت الزنوج ليست العرب على شىء — شأن السياسة الانكليزية فى مشارق الارض ومغاربها — بل لعبت يد التفريق بين العرب ذاتهم ، فالبقارى يبغض الجعلى وهذا الاخير يحتقر الشايقى — وهكذا ترى خلفاء الأمة العربية هنا كأبناء عمومتهم فى شبه الجزيرة .

١٠ — من كتاب عاشر

أحزن مايحزننى أنك تقول فى معرض الرد على — تشبهوا بالانكليز — الانكليز ياصديقى لهم فى كل بلدة من بلاد السودان القصور الشاهقة والحدائق المنمقة التى أسست وبنيت على حساب المصريين ومن دماء الفلاحين المساكين . أما نحن فنقطن متفرقين فى (القطاطى والتكلات) أو بيوت من الطين النيء مسقوفة بجذوع الاشجار وبعض (الابراش) وكل مايقيها

من الهدم طليها بروث البهائم ـ وهم يستمتعون بكل السلطان ونحن لاسلطان لنا حتى على خدمنا الذين نؤتيهم أجورهم ضعفين . واذا ادعى منهم مدع لدى المفتش الانكليزى أنه لم يتناول مرتبه أجبر مخدومه على دفعه وفوق هذا يهان ويسجن إن لم يقبل الاهانة .

ياقوم استحلفكم بحق مصر ألاّ تنسوا السودان وثقوا بأن المصرى غريب فى بلاده هنا حقا . وأن السياسة دائبة على فصل الاخوين الشقيقين .

لقد فرحتم أن انتصرتم على العدليين (كتب هذا فى أوائل سنة ١٩٢٤) وهم مصريون يختلفون معكم فى الآراء . فوجهوا تلك الجهود للقضاء على دسائس خصومكم بالسودان .

اتحدوا اتحدوا فانه . والذى فى السماء إله وفى الارض إله . لاشىء أنفع من الاتحاد . واجمعوا السهام التى كنتم تتراشقون بها وصوبوها لنحور الاعداء الحقيقيين ـ فان لم تفعلوا ـ فسلام على مصر وسلام على السودان وعفاء على الاستقلال وعفاء على البرلمان . اه

* * * *

تلك بعض آثار السياسة الجهرية التى استطعت الوقوف عليها بمجهودى الفردى وهى قطرة من بحر وكلمة من سجل . أما السياسة الخفية فعلمها عند الانكليز وحدهم وهى سر تفوقهم الاستعمارى وقبضهم على ناصية الأمم المغلوبة على أمرها .

واذا كانت مصر مع مابلغته من علم ومدنية قد ارتج عليها ولم تستطع أن تقف على شيء من كنه تلك السياسة ، فأحرى بالسودان أن يجهلها كل الجهل .

على أني بعد الذى وقفت عليه حتى إبعادى من السودان في أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٤ . أظلم نفسى وأظلم السودانيين وأظلم الحقيقة إن أصررت على جهل السودانيين بمآرب السياسة الانكليزية . فبتعرفى الى الكثيرين من خاصتهم وعامتهم وباختلاطى بأوساطهم وبالصداقة التي توثقت عراها بيني وبين الكثيرين من زعمائهم . توصلت الى معرفة حقيقة شعورهم وأتيح لى الوقوف على خفايا صدورهم وتأكدت أنه لاتكاد تخفى على عقلائهم خافية من أمر تلك السياسة .

تبسطت يوما فى الحديث مع رجل من أنبه رجال كردفان واستلحفته بكل عزيز أن يصارحنى برأيه فقال لى مامعناه :

(اسمع يابنى . لقد علمنا التعايشى كل ضروب النفاق وجنى على أخلاقنا أكبر جناية حتى لكأنه كان انكليزيا أسود ففرق بين القبائل والأسر لدرجة أن الرجل منا ما كان يستطيع أن يفضى بذات صدره لأمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه . وما اجتمع اثنان منا يتناجيان إلا وهما يخالان أنه ثالثهما ففشت الغيبة والنميمة وطغى التمليق والزلفى حتى أضحت من صفات السودانيين المكتسبة . فلما جاء الانكليز ورأيناهم يسلكون مجازه وينسجون على طرازه فيصغون لسماع كل وشاية وينشرون بيننا لحكمهم وعدلهم أوسع دعاية

ويرحبون بكل من اغتر بهم وانخدع بأعمالهم · في حين أن قومك وقفوا آنا متفرجين وآونة شبه راضين . انصرفت قلوب الناس عنكم إلى من هم أقدر منكم حتى خيل أننا مغرمون بهم متيمون بحبهم . وهم لايفقهون أن التعايشى كان يتوهم هذا من قبلهم .

واني لأصارحك الآن بأننا لانبغى بغير الاستقلال بديلا فلا نريد الانكليز ولا نريد المصريين ولا نرضى بملائكة الرحمن أنفسهم إن هم أرادوا استعمار بلادنا . فالعبيد ذاتهم يتفانون في سبيل الحرية ونحن سادة العبيد فكيف لا نفعل مثلهم فلايخدعك ماتراه.

أما إذا كانت مصر تعنى ماتقول حقيقة وتريد أن تجعل من السودان شريكا له مالها وعليه ما عليها فالسودان عبد مصر وأنا بهذا زعيم) .

* * * *

وبعد . فكل ما أنشىء بالسودان غير ما أسلفت . عدا مشروعات الجيزة وخزان مكوار . إنما هو بمال مصر وما خسرت فيه انكلترا مثقال ذرة .

فحض اختلاق واسفاف في التبجح ما يدعيه الانكليز من حق الفتح ومن التعمير ومن التمدين ومن كل الدعاوى العريضة الشهيرة .

واليوم الذى تتوهم فيه الامبراطورية فصل مصر عن السودان بالفعل ما يزال بعيداً بعد السماء عن الأرض .

والآن وقد انهار صرح الحجج الانكليزية من أساسه حجة إثر حجة فلا فتح ولا ضحايا ولا مال ولا إدارة حسنة ولا عدالة شاملة . لم تبق إلا دعوى إثارة السودانيين فى سنة ١٩٢٤ .

فلنبحث عمن أثارهم ولنبين إلى أى حد قعدت مصر عن نصرتهم مع أنها لو شاءت لانتهزت الفرصة وقضت على نفوذ الانكليز قضاء نهائيا . ولكن قدّر فكان .

حقيقــــة ثورة سنــــة ١٩٢٤

انجلت الثورة المهدية عن فقد عدد لايحصى من السودانيين بالرغم عما اتصفوا به من الجلد والشجاعة والصبر والاقدام . فقد ظلوا يحاربون الانكليز فى شخص مصر سبعة عشر عاما متوالية . وهم فى الوقت نفسه قد حاربوا الاحباش والطليان والممالك المجاورة لهم من الغرب (المتاخمة لدارفور) فضلا عما أنزله بهم التعايشى وقومه من أنواع الظلم والارهاق وضروب العسف والاضطهاد حتى أفنى قبائل برمتها كالشكرية والكبابيش اللتين كان يبلغ تعدادها نحو المليون نفس . وكاد يقضى على الشايقية والجعليين والبطاينة وسواهم ممن حل بهم سخطه ونزل عليهم غضبه . وفوق هذا وذاك فقد قضت المجاعة التى حدثت فى عهده على مئات الالوف منهم . وأسفرت النتيجة النهائية عن تناقص عددهم الى أقل من النصف . واستولى عليهم مايستولى على الكمى المنهزم من علائم الذلة ودلائل المسكنة .

وكانوا قد تمنوا أن تنقذهم مصر من ظلم الخليفة وتعود بهم الى ساحة عدلها وباحة عطفها واذا بهم يرونها وقد غلبت مثلهم على أمرها وتولى الانكليز شأنها . وما برحوا أن رأوا للانكليز القول الفصل والسلطان الأعلى فى كل شيء . ولقد كرهوا فيما مضى أن تستعين مصر . فى شخص عاملها غوردون . على ادارة بلادهم بعشرات من الاجانب وثارت ثائرتهم لذلك . فبهتوا لما رأوا المئات من الانكليز يتولون كل ناحية من نواحي الادارة واختلط عليهم

الامر وأسقط فى أيديهم ولم يسعهم إلا الرضا بقضاء الله وانتهاز الفرصة المناسبة للتخلص من ذلك الخطب الجديد .

ولقد عاموا بما فطروا عليه من ذكاء أن الانكليز لايستطاع اجلاؤهم عن السودان مالم تتخلص منهم مصر أولا . ولكن مصر نامت وطال نومها . فلما آن لها أن تستيقظ فى سنة ١٩١٩ استيقظ السودان على أثرها . فما قام سعد بمصر حتى قام على عبد اللطيف فى السودان وتريث فى إشهار دعوته . ولو لم تعجل انكلترا بارسال الوفد السودانى الى لندن لتقديم فروض العبودية للدائرة المرنة لظل السودان ساكناً معتمداً على أنه ومصر وحدة لاتقبل التجزئة وأن ماسيسرى على مصر سيسرى عليه حتما . ولكن تعجيل الانكليز بارسال (وفد الولاء) قوبل بالامتعاض لدى جميع العقلاء . وعصفت بأفئدتهم رياح الشعور والاحساس بما يراد ببلادهم فلم يروا بداً من مؤازرة على عبد اللطيف فى السر ولم يجرءوا على الجهر بآرائهم خشية التنكيل بهم . فبات القدر يغلى ثم يغلى حتى أوشك أن ينفجر .

فلما أن شغلت مصر بذلك الخلاف العقيم والشقاق الطائش أشفق السودانيون منه وحسبوا حساب الفشل فاعتصموا بالهدوء والسكينة وباتوا ينتظرون ماتأتى به المقادير . حتى اذا ماجد الجد فى عهد الوزارة الشعبية الأولى وطفق البرلمان يردد ذكر السودان عادوا لاستئناف الجهاد السافر . وأقسم غير حانث . أنه لم يكن بين السودان وبين الاستقلال التام إلا الزعامة الحازمة والعمل الحاسم .

شعر الانكليز بخطورة الحال . فقاموا من فورهم بعمل عرائض مختلفة ضمنوها (إعراب السودانيين عن ولائهم لهم وارتياحهم لوجودهم ورضائهم عن حكمهم واغتباطهم بعدلهم . وتقمّهم من المصريين الظالمين والاشادة بذكر مظالمهم المزعومة وفظائع الدفتردار وما إلى هذا من أفانين الكذب وضروب المين) .

وقام المستر ولس مدير مصلحة المخابرات بنفسه وبمن يثق به كل الثقة من رجاله للحصول على توقيعات زعماء القبائل وعمد العشائر ونظار الأقسام على حدة وتوقيعات العامة وحدها .

أحفظ هذا العمل الجرىء نفوس الشبان والمتوقدين من الأهالى فقاموا بحركة مضادة وسعوا بدورهم للحصول على توقيعات نفس الاشخاص الذين وقعوا لمدير المخابرات وعماله معلنين (أنهم أكرهوا إكراها على التوقيع للمدير المذكور . وأن كل ماجاء بتلك العرائض الزائفة باطل ولا ظل له من الحقيقة . وأنهم لايبتغون سوى البقاء إلى الأبد فى حظيرة الوطن الاكبر وأن مصر والسودان جزء لايتجزأ) .

وشهد الله أننى وقفت على سر الموضوع من مبدأ الأمر وعلمت بحركة الانكليز وهى وليدة وآمنت بوجوب القضاء عليها ولما تبلغ أشدها . ويرجع الفضل فى ذلك إلى صديقى البطل الوطنى الغيور اليوزباشى (بكباشى الآن) محمد صالح جبريل . فقد وقف على الحقيقة من الزعيم الباسل على عبد اللطيف وأسرها

إلىّ فى الحال وزودنى بما وقع فى يديه من الوثائق .

فبادرت بمخابرة أولى الأمر بمصر وأخطرتهم بكل التفصيلات وشفعت ذلك بعريضة من العرائض المطبوخة فى مصلحة المخابرات وأظهرت تمام الاستعداد للقيام بحركة علنية مضادة حتى اذا ماقبض علىّ وشرع فى محاكمتى أعلنت على رءوس الاشهاد أننى إنما أقابل عملهم بعمل مثله . والبادى أظلم . وقلت إننى مستعد للموت فى هذا السبيل ، وكنت أوقن أن مثل هذا العمل الجدى من قبل المصريين من شأنه – على الاقل – أن يكشف سرهم ويفضح كيدهم ويفوت عليهم غرضهم . وأن مصر تستطيع بعد ذلك أن تلزمهم الحجة وتثبت عليهم الكيد والدس .

ولكنى أمرت تلغرافياً بوجوب التريث وانتظار التعليمات . وكنت قد شرعت فى مهمتى بالفعل . ولكن فى السر . قبيل ذلك فاجتمع لى نحو الثلاثة آلاف توقيع فى بضعة أيام . فاضطررت لايقاف كل شىء انتظاراً للتعليمات .

وجاءنى كتاب من الوسطاء بعد أسبوعين يقولون فيه (إن أولى الامر لم يقروا رأيى ولم يوافقوا على عملى) .

فكانت النتيجة انعكاس الآية واتهام المصريين بتأليب السودانيين ودس الدسائس للادارة الانكليزية .

ومن رعي غنما فى أرض مسبعة * ونام عنها تولى رعيها الأسد

وقف المصريون متفرجين . مع الأسف الشديد والألم الممض .

ولو وقف مصريو السودان مع اخوانهم وتعاونوا على العمل المجدى ، كما ادعى الانكليز زورا وبهتانا ، لاستقل السودان ومصر فى سنة ١٩٢٤ . فقد طاشت سهام السياسة الانكليزية وذهلت لما رأته من مظاهر الوطنية وأوشك زمام الأمر أن يفلت من يدها حتى أصبحت تنقض فى يومها الحاضر ما أبرمته فى أمسها الدابر وبادرت باتخاذ أقسى التدابير وأجرتها دون تفكير فى النتائج لفرط ماحاق بها من الفزع والحـــيرة وباتت تخبط خبط عشواء فى سبيـــل القبض على ناصية الحال .

فلو أن مصر تشجعت قليلا لردت كيدها فى نحرها وخطت خطوة حاسمة نحو الغاية التي تنشدها ولكنها استكانت وجبنت فغلبت على أمرها وكان الذى كان

وان أنت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس أهونا

فما كان يجب أبدا الرضا بابعاد أورطة السكة الحديدية عن السودان . بل كان من الضرورى ردها ورد كل ضابط وموظف قضى (بطرده) لمجرد اتهامه بالاشتغال بالسياسة .

وكان واجبا قبل هـــذا وذاك ارسال النقود التى جمعت باسم منكوبى السودان لاربابها . فالقعود عن ارسالها كان من أهم البواعث لاخماد الحركة وفتور الهمم وخور العزائم .

وتحرير الخبر أن كل من كان يقبض عليه من السودانيين فيحاكم

ويحكم عليه بالسجن يتضور أبناؤه جوعا لاعتقال عائلهم . ومن ثم لا يرى سواه معني للجناية على أبنائه • والى هنا يقف اليراع فما كل مايعرف يقال (و يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) .

على أنى أذكر للحقيقة والتاريخ أنى بعثت لولاة الامور فى ذلك الحين ملف قضية محكوم فيها على ثلاثة أشخاص بالسجن ثلاث سنوات وحيثيات الحكم مبنى جلها على (جريمة) الهتاف لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر والسودان ، وقلت إن أحدهم ترك من ورائه ذرية ضعافا . لاأذكر عديدها . وكلهم يشكو مرارة الجوع وألم العرى وهم فى حالة تستدر عطف الجماد ، بعد أن حرموا أربعة عشر جنيهاً كان يتقاضاها عائلهم مرتباً شهريا وذكرت أن أمثال هذا يساقون بالعشرات الى السجون فى كل يوم دون أن يعرفوا مصير أسرهم . فلم يستمعوا الىّ (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) . ومرة أخرى (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) .

وتلقيت يوماً من صديق سودانى صـــورة تلغراف بالشفرة وتعريبه مرسل من قومندان قسم الخرطوم الى قومندان قسم كردفان . حوالى منتصف شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ • يقول فيـــه مامعناه : ــ يراد إبعاد البلوك البيادة الذى بالابيض من الأورطة الثالثة المصرية الى الخرطوم وحلول بلوك انكليزى محله . فاعمل الترتيب اللازم لذلك وعلى قومندان البلوك المذكور أن يفهم أن هناك اضطرابات وقعت

بالقاهرة ترتب عليها قيام الأورطة الرابعة المعسكرة بالخرطوم الى مصر وحلول هذا البلوك محلها.

فأخطرت بهذا اليوزباشي (بكباشي بالمعاش الآن) ابراهيم افندى تادرس الذى كان قائما باعمال البلوك لغياب القومندان بأجازة قبل أن يخطره قومندان القسم باربع وعشرين ساعة وكان الرجل وطنيا وشهما وبعد التفاهم مع سوانا من صادق الوطنية ، عرضت جملة حلول ثورية ولكنها رفضت لتغلب الحكمة وأقرت الأغلبية وجوب ارسال استفسار برقى لقومندان الأورطة الثالثة بالخرطوم عقب ابلاغ الامر لرئيس البلوك من لدن قومندان القسم.

فلما أبلغ اليه الأمر فى اليوم التالى وبعث اليوزباشي يستفسر قومندانه جاءه الرد باطاعة الأوامر . وقامت الجنود المصرية واحتل ثكناتها بعد اسبوع واحد جيش انجليزى.

وبعثت بهذا وبغيره وغيره لذوى الشأن . ولكن بدون نتيجة !!!

ومرة ثالثة (ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى).

وأخيراً كان لزاما . فى اعتقادى . ويشاطرنى اخوانى السودانيون رأيي أن تموت بضع مئات الضباط والجنود وكل المصريين الذين كانوا بالسودان عند مقتل السردار قبل أن يصل اليهم الأمر الملكى الكريم . ولا يتركوا السودان لقمة سائغة للانكليز .

ولو أنى بقيت معهم لفعلت . ولكنى (طردت) قبيل ذلك

بحجة أن وجودى خطر ولا ذنب لى إلا الاخلاص للواجب الوطنى .

وهكذا ترتب على سكوت مصر كل ما حدث بعد ذلك من المحن والارزاء مما لا يزال ماثلا فى الأذهان وواضحا للعيان .

فمنذا الذى أثار السودانيين أولا ونكل بهم أخـــــيراً ؟ ؟ ؟ اللهم فاشهد وأنت خير الشاهدين .

الخـــــــاتمة

ليس أدل على حب السودانيين لمصر وتعلقهم بها من كون أهل كردفان مع اشتهارهم بالتدين ومع اعتقاد المستعمرين أنهم يحملون بين جنوبهم أشد البغضاء للمصريين . قد قبلوا عن طيب خاطر أن يمتنعوا عن صلاة الجمعة بمسجد الابيض احتجاجا على حذف الدعاء لجلالة الملك من الخطبة .

فلأول مرة لوحظ فيها اغفال الاسم الكريم ظننت أن الامر غير مقصود فلما تأكدت أن هذا من صغار السياسة الانكليزية • عرضت فكرة هذا الاحتجاج على بعض الاخوان ، فقوبل اقتراحي بالهزء والسخرية من جانب دعاة اليأس من المصريين ، وأجمعوا على أني لن أستطيع أن أكتسب موافقة سودانيين اثنين على اقتراحي .

فلما كانت الجمعة التالية وانصرف أغلب المصلين قبل أن ينزل الخطيب من فوق منبره ولم يبق فى الجـامع على سعته إلا بضع عشرات ممن لم يتصل بهم الخبر ولم يفقهوا السر فيما حصل . اكبروا هذا الشعور الرائع . وذهبنا جميعاً فأقمنا الصلاة فى فضاء خارج البلدة .

ولا يزال الزنوج من رديف الاورط السودانيـة يعتزون كل الاعتزاز بأنهم من جنود (أفندينا) ويعتبرون هذا مجداً لهم وفخراً لقبيلهم ولا يزال من يشتغل منهم فى البوليس والخفر يستعمـل الاصطلاحات العسكرية القديمة (التركية) الى يومنا هذا .

ويذكر العبيد لمصر فضل تحريرهم والقضاء على تجارة الرقيق بينهم ولا ينسى الشلوك ماكان من أمرها معهم يوم استدعى اسماعيل أيوب باشا حكمدار السودان مليكهم كيكوم بك وسامه ألف رأس من رقيق قومه ضبطتهم الحكومة مع الجلابة .

أما العرب فأبناء عمومتنا وخؤولتنا . واذا كانت الايام قد ضربت بضرباتها بيننا حيناً من الدهر . فقد علموا ما لمصر عليهم من أياد وأن حكومتها السابقة على علاتها كانت بهم أرحم ولهم أصلح من حكومة الدناقلة والبقارة • وفهموا أن الانكليز إنما يستغلون بلادهم بكل طرق الاستغلال حتى تصبح أخصب مزرعة لمعامل يوركشير ولانكشير • وقد ذاقوا وبال فعلهم وخبروا حقيقة أمرهم • وما عهد انتزاع ملكية أراضى الجزيرة من أيدى ملاكها ببعيد .

وإن ينس حضرة صاحب الفضيلة الحسيب النسيب السيد على المرغني زعيم السودان غير منازع . لا ينس أن اعتزاز مصر بشيعة السادة المرغنية واجلالها لزعيم الأسرة الشريفة وتأييدها لطريقته القوية كان من أكبر أسباب الثورة المهدية التى خسرت فيها أحب مال وأعز بنين .

ولن يعزب عن أذهان حضرات السيد عبد الرحمن المهدى والشريف يوسف الهندى والسيد اسماعيل الازهرى والاستاذ أبى ذقن والشريف حمد النيل والسير على التوم وأمثالهم من الزعماء والعقلاء والمفكرين أن مصر تعتبر السودان جزءا متمما لها وأنه ليس أحب اليها يوم يعود الى احضانها من أن تعامله معاملة الغربية واسوان وأن فكرة

الاستعمار لم تنبت إلا فى رءوس الانكليز أملتها الاحقاد والسخائم وهول الفزع من اليوم الأغر المنتظر .

بقى أن يفهم سواد المصريين أن اليوم الذى يتحقق فيه فصل السودان عن مصر بالفعل انما هو آخر يوم فى حياة بلادهم ، وأن انكلترا تسعى السعي كله للقبض على نواصينا بالماء . وأنها تسلب باليمين ماتعطى باليسار فلن ترفع يدها عن مصر من الشمال إلا لتضعها عليها من الجنوب .

واذا كان فلاحونا يتقاتلون فيقتلون ويقتلون على مياه الرى وما يزال النيل نيلنا فماذا عساهم أن يصنعوا يوم يمسى النيل انكليزيا ؟

أيها المواطنون .

لقد كنا أول من تفرد فأسر فى أذن الزمان أن عهد الذلة والمسكنة قد مضى وانقضى وأنه لن يعود . وآية ذلك أننا تحركنا غداة الهدنة يوم سكن المحاربون ، وثرنا بعيد الحرب وقلما هدأ الثائرون . فزلزلت الأهرام زلزالها ، وأفضى أبو الهول بكلمة من سره الرهيب . فأصغى له الدهر ، وأنصت العالم أجمع .

وكانت مصر أول من أغار على حصون الاستبداد فدك منها معقلا ، وأسبق من فوق السهام الى قلب الاستعباد فأصاب منه مقتلا وأصبحت ثورتها أضوأ نور تلألأ فى سماء الحرية ، وأعلى صيحة أهابت بالنوام أن « حىّ على القومية » ، وأرفع لواء سما ورفرف على هام الوطنية .

وعنها تلقت سائر أمم الشرق دروس التضحية والجهاد ، فقضت بالأمل الزاهر على اليأس القاهر ، وما برحت تفتن في طرق الجلاد ، وتشتد في سبل العناد حتى سبقتنا بمراحل ، وأضحت الغاية المنشودة منها على قاب قوسين أو أدنى .

فيا أسفا على مصر ، ويارحمتاه لنا ، وواعاراه علينا . أيقظنا غيرنا ونمنا ، فصاح وسكتنا ، وسار حيث وقفنا ، وجد وتقاعدنا ، واتحد وتفرقنا . وما ذلك إلا لأن بأسنا بيننا شديد يحسبنا الناس جميعاً وقلوبنا شتى .

دعوا الحزبية والتحزب من أجل السودان على الأقل (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) . واتقوا الله في وطنكم ولا تتربصوا ببعضكم الدوائر فتدور الدوائر عليكم جميعاً ، وليوقن الكل أن مسألة السودان بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت .

وبعد . فلا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، وأعمار الامم بالحقب والاجيال لا بالايام والاعوام . فالاتحاد الاتحاد ، والجهاد الجهاد ، والثبات الثبات ، والدعوة الدعوة الى مقاطعة كل فرد أو حزب تسول له نفسه أن يرضى بما دون الاستقلال التام لمصر والسودان .

انتهى

ضما للأشباه والنظائر وجمعاً للمتفرق من ضحايا مصر فى السودان نذيل على هذا الكتاب بمذكرة المغفور له المرحوم محمد أبى الفتوح باشا التى وضعها وقدمها فى مفاوضات سنة ١٩٢١ لما فى هذه المذكرة من الحقائق التى لاينبغى أن تغيب عن الباحثين ومحبى الاطلاع على مابذلته مصر فى هذا السبيل .

وهاهى المذكرة المذكورة :—

مذكرة

عن السودان المصرى

لمحمد أبى الفتوح باشا عضو الوفد الرسمى الذى سافر الى لندن للمفاوضات فى المسألة المصرية برياسة عدلى يكن باشا سنة ١٩٢١ م

القسم الاول

١ ـ لمحة تاريخية

لاجدال فى أهمية السودان لمصر . وما ذلك إلا لأن امتلاك وادى النيل برمته هو لها بمثابة حياة أو موت . ولهذا لم يتردد قدماء الفراعنة فى أمر فتحه . وأتى محمد على بثاقب فكره وبعد نظره فحذا حذوهم واهتدى بهديهم وجاهد فى فتحه من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٢٢ م

وضم اسماعيل باشا لمصر نواحى البحيرات الكبرى لغاية منابع النيل وبحر الغزال وجهات خط الاستواء وساحل البحر الاحمر لغاية رأس غردفوى ووضع الاوغندا تحت حماية مصر وتحصل من الباب العالى على التنازل عن سواكن وزيلع وملحقاتهما كما تحصل منه على لقب خديو مصر وملك النوبة ودارفور وكردفان وسنار .

ونوه فرمان سنة ١٨٤١ م بذكر النوبة ودارفور وكردفان وملحقاتها

أى السودان لغاية منطقة البحيرات الكبرى . وأيد فرمان سنة ١٨٧٩ وفرمان سنة ١٨٩٢ م الفرمانات السالفة وصادقت الدول على هـــذه الفرمانات جميعها على تباينها .

وعلى أثر الاضطرابات التى حدثت فى السودان بسبب تمرد المهديين حتمت الحكومة البريطانية رأيها على مصر فى سنة ١٨٨٣ م بترك السودان بقضه وقضيضه .

وكانت نتيجة هذا التحكم المشئوم ضياع حامية الخرطوم المؤلفة من ٦٠٠٠ نفس وجميـــع المصريين المقيمين فى السودان والمراكب ومجهودات وثمار ٦٥ عاما . كل هذا وغيره ذهب هباء .

احتجت وزارة شريف باشا التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولكن احتجاجها ذهب صرخة فى واد ولم يفد شيئا واكرهت هذه الوزارة امام التهديد أن تقدم استقالتها .

كيف نفسر هذا التغيير المبين فى السياسة الانكليزية . أيقال إن اخلاء السودان كان من مصلحة مصر ؟ كلا ثم كلا . وستوضح لنا سياسة الاستعمار الانكليزية فى افريقية الأسباب الموجبة لذلك التطور .

٢ — سياسة الانكليز الاستعمارية فى أفريقية

لقد كانت انكلترا دبرت لها من أمد بعيد خطة استعمار فى افريقية وهـــذه الخطة ترمى الى انشاء امبراطورية واسعة الارجاء مترامية الأطراف فى افريقية ، امبراطورية تمتد من القاهرة الى رأس عشم الخير .

وفى شهر سبتمبر سنة ١٨٧٧ م كتب المستر غلادستون فى مجلة القرن التاسع عشر يقول :

« اذا توطدت أقدامنا فى مصر تكون هذه المستعمرة الأولى بوجه التحقيق بمثابة ذريعة لتأسيس امبراطورية شاسعة فى أفريقية الشمالية وتأخذ فى النمو تدريجياً الى أن تدخل فى تخومها منابع النيل الابيض بل وتنتهى بدون شك بأن تجتاز خط الاستواء لتتصل بمستعمرتى النتال ورأس الرجاء العشم. وذلك بغض النظر عن الترنسفال ونهر الاورنج . وكذلك يكون الحال فى الحبشة وزنجبار اللتين سنلتهمهما لدى مرورنا بهما ».اه

وتنفيذاً للخطة السالف ذكرها احتلت انكلترا مصر عام ١٨٨٢ م وحتمت اخلاء السودان سنة ١٨٨٣ م واستولت على الاوغندا ونواحى خط الاستواء والاونيورو سنة ١٨٩٠ م ووادلاى فى سنة ١٨٩٥ م.

ولتحقيق نفس هذا الغرض ووضع هذه النية فى طريق النفاذ عقدت الاتفاقيات الآتية :

١ ـ الاتفاقية الانكليزية الالمانية فى أول نوفمبر سنة ١٨٨٦ م
٢ ـ « « الايطالية « « يوليه « ١٨٩٠ م
٣ ـ « « مع الكونغو « ١٢ مايو « ١٨٩٤ م

والغرض من هذه الاتفاقيات الثلاث تحديد مناطق نفوذها فى نواحى أعالى النيل والسودان الشرقى .

وعقب أن تم لانكلترا هذا الضم المتتالى وعقد هذه الاتفاقيات لم يبق لديها ماتخشاه من أى تدخل أجنبى فى الجانب الشمالى من أعالى النيل إذ أنها أضحت مرتكزة على مصر من جهة الشمال وعلى

إيطاليا وأوغندا من الشرق وعلى ولاية أوغندا والكونغو المستقلة وممتلكاتها من الغرب والجنوب . وبذا أحاطت بالسودان المصرى من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم .

وآن الاوان للانكليز للاستيلاء على هذا البلد الذى كانت يد الثوار قد عبثت به طيلة خمسة عشر عاما ومزقته كل ممزق . وكان لابد لهم فوق ذلك من الاسراع في العمل لأن فرنسا كانت تحاول الوصول الى أعالى النيل . وما وقع من الجدال بمجلس العموم فى جلسة ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ م فيه مايكشف الستار ويزيل القناع عن السر فى الاسراع . فلقد قال السير ايلياس اشميد بارتلت بصدد الاشاعة التى أذيعت عن اعتزام فرنسا على ارسال بعثة الى أعالى النيل مايأتى :

«من الضرورى القيام بعمل سريع وبغير ذلك لانضمن البتة ألاّ يسبقنا الفرنسيون ويحتلوا قبلنا جهات أعالى وادى النيل » . اه

وصرح اللورد سالسبورى فى مجلس النواب فى ٨ فبراير بما يأتى :

« إن مصلحة مصر تقضى بألاّ يدنس تخومها حادث من حوادث التعسف المجردة من كل نزاهة . بل هناك دواع أخرى تستلزم الزحف على الخرطوم . وهذه الدواعى الأخرى لاداعى لذكرها وهى تستدعى ايجاد قوة فى وادى النيل» . اه

وهذه الدواعى التى لاداعى لذكرها إن هى إلا استباق الفرنسيين فى احتلال اعالى النيل وطردهم منه اذا كانوا وضعوا أقدامهم على أراضيه .

وفوق ذلك كان غرض الانكليز من وضع الاتفاقية الانكليزية الايطالية مواجهة الايطاليين بمنليك ملك الحبش حتى لا يشتغلوا هم

بأمره الى أن تسمح لهم الظروف بتنظيم حملة السودان لأن منليك كان أرسل بمنشور للدول مؤرخ فى ابريل سنة ١٨٩١ م اخبرهم فيه عن عزمه على فتح السودان . ولم يخطىء انكلترا فيما رأته وقدرته وجاءت الكارثة التى حلت بالطليان فى (عدوه) فزادت فى جزع الانكليز ومخاوفهم .

ومما سبق ايضاحه يرى بجلاء أن اخلاء السودان لم يقرره الانكليز حقيقة مراعاة لمصلحة مصر التى تحملت خسائر جمة من جراء هذا الاخلاء وتضحيات هائلة فى سبيل استرداده وفى الحالتين لم تقم بشىء سوى خدمة الانكليز مضحية فى ذلك نفس مصلحتها .

٣ — استرداد السـودان

وفى ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ م أى بعد ١٢ يوما من كارثة الطليان فى (عدوه) ورد للسير كتشنر سردار الجيش المصرى فى منتصف الليل أمر بتسيير حملة لاعادة فتح السودان . ولم يصل خبر قرار الوزارة الانكليزية لرئيس وزراء مصر إلا بعد ظهر يوم ١٣ وللخديو إلا فى مساء ذلك اليوم .

واستمرت الحرب سجالا مدة عامين وفى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م دخل السير كتشنر أم درمان عاصمة السودان يخفق على رأسه علم النصر . وتحملت مصر وحدها تقريبا كل اعباء هذه الحرب . فكان الجيش مؤلفا كله على وجه التقريب من عساكر مصرية . ووضع على عاتق مالية مصر تقريباً كافة مصاريف الحرب . ومن ذلك الوقت لم تكف مصر عن

أن تقدم للسودان القروض التي كانت تلزم لرواج منتجاته ومحاصيله . ولمد شبكة من السكك الحديدية يبلغ طولها ٢٤٠٠ كيلو متر . وانشاء عدد كبير من الطرق والمواصلات النيلية . ولعمل مجموعة متقنة للرى فى بعض الجهات . ولقد مر على الجيش المصرى خمسة وعشرون عاما طوالا وهو بأسره تقريباً فى السودان يشتغل فى تهدئتـه وتوطيـد دعائم الأمن فى ربوعه وانشاء كافة الأشغال العمومية التى من جملتها بورسودان الذى تأسس بمال مصر وعاد عليها منـه اضرار فادحة وذلك بسبب تحـويل البضائع اليه بعد أن كانت تمر قبلا عن طريق مصر .

ويستطيع الانسان أن يحكم عنـدما يتأمل بثاقب فكره فى سرعة أنتهاء هذه الحرب وفيما أبداه المهديون من ضعف المقاومة عنها وهل كان حقاً هنالك أمام مصر ذلك الشبح المخيف الذى اتفق أساطين السياسة على أن يسموه فى عرفهم الخطر المهدوى ؟ وهل قرار اخلاء السودان اتخذ صدقاً فى مصلحة مصر دون سواها ؟

وأما كان عوضاً عن إخلاء السودان تركت مصر تتخذ علاجا ناجعاً لاخماد الثورة كما كانت تريد وزارة شريف باشا فقـد كان ذلك فى حيز استطاعتها إذ كان فى قدرتها أن تحشد فى سنـة ١٨٨٣ م جيشاً عدده يضارع على أقل تقدير عدد الجيش الذى جمع سنة ١٨٩٦ م إن لم يفقه ويزيد عنه . لو كانت تركت وفعلت ذلك لأنقذت حاميتها ورجالها واحتفظت علاوة على ذلك بحرمتها ونفوذها الأدبى وما كان وجد لاتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ م لا اسم ولا رسم .

وانتقل الآن لفحص هذه الاتفاقية :

٤ — اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ م

هـــــذه الاتفاقية فريدة فى باب الاتفـاقيات إذ لم يسبق فى عالم الاتفاقيات عقد اتفاقيـة نظيرها فى القانون الدولى . ومن يرد أن يحـاول تكييف نوعها تكييفاً شرعيا يتحير وتذهب محاولته أدراج الرياح . غير أن الذى يستطاع تحققه منها هو أن الحقوق التى منحت لانكلترا فى هذه الاتفاقية لاترتكز على أى مسوغ شرعى .

فليس على ارسال بضع اورط من الجنود لايجاوز عددهم ألفى جندى وصرف مبلغ زهيد من المال يستطاع تقرير حقوق لانكلترا فى السودان . فمصر لم تطلب من هذه الدولة أن تمدها بالمعونة البتة وما أدته من الخدمة كان بمحض إرادتها واختيارها وبدون أن تدعى لذلك وبدون عقد مشترط فيه مقدار ما تأخذه مقابل خدمتها .

واذا كانت المعونة من شأنها أن تقرر حقاً ما فينبغى أن يكون لمصر هذا الحق فى سورية وفلسطين . وذلك لأن الفضل فى تيسير فتحها يرجع الى رجالها وسككها الحـــديدية وموانيهـا وتزويدها بالجيش الانكليزى بالزاد والمـاء ومختلف الادوات والآلات . وصرفت مصر مايربو على ٤ ملايين من الجنيهات علاوة على الفرق فى أثمان كل ما طلبه الجيش الانكليزى وفرق ثمن صنف القطن وحده يعـد بالملايين وذلك بصرف النظـر عن ثمن الحبوب على انواعهـا والمواشى ذلك الثمن الذى نقص الثلث فى مدة الحرب .

ولقد صرح المارشال ألنبي بالمساعدة القيمة التي أسدتها مصر في غضون حرب فلسطين وسورية . وجاء في تقرير اللورد ملنر ما يأتي :ـ

« إنه لمن العدل الجهر بالخدم التي أبداها قسم الاشغال المصرى . تلك الخدم التي قيمتها لا يقدر لها ثمن والتي كان لا بد منها في حرب فلسطين » .اه

ولقد كانت انكلترا مدينة لمصر ديناً أدبياً مزدوجاً يدعوها لمساعدتها في استرجاع السودان . ألم تكن هي التي أوعزت باخلائه ؟ ألم تكن هي التي منحت نفسها لقب وصية عليها ؟ لقد قال السير ادوارد غراى وكيل وزارة خارجية انكلترا في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ م أمام مجلس النواب:

« إن لانكلترا مركزاً خصوصياً بالنسبة للدفاع عن مصالح مصر ألا وهو موقف الوصي . ومطالب مصر في استرداد السودان لم نسلم بها نحن وحدنا فحسب بل سلمت بها أيضاً فرنسا وأيدته جهاراً على رؤوس الاشهاد » .اه

أليست انكلترا هي التي لاجل تنفيذ خطتها الاستعمارية في أفريقية والحيلولة دون قيام فرنسا بسد الطريق ، ساعدت مصر لكى تكون آمنة من انجاح مشروعاتها ؟

ومن جهة أخرى فالذى يبدو لنا أن انكلترا ما أرادت أبداً ولن تريد مطلقاً أن تنازع مصر في مسألة سيادتها على السودان . وأن من الواجب أن تظل هذه السيادة تامة لها وحدها دون منازع . أما إذا أريد عكس ذلك فكان يلزم إيجاد نص خاص ينوه فيه بذلك وهذا النص لا وجود له . بل يوجد بالعكس تصريحات رسمية كثيرة تفيد دوام

هذه السيادة واستمرارها .

أما مسألة عدم إخماد ثورة شبت فى ولاية من ولايات احدى الامم وترك هذه الولاية وقتاً ما فهذا العمل لايفيد فى حد ذاته التنازل عن السيادة على تلك الولاية .

إن مصر من منذ عهد فتوح الفراعنة لم تتخل يوماً ما عن السودان بطريقة نهائية . واذا كانت فى بعض الاحيان تشاغلت عنه فتشاغلها هذا لم يكن إلا اضطراريا اقتضته ظروف الاحوال ومع ذلك لم تمتلكه دولة فى أى وقت من الاوقات . بل ظلت حقوقها فى السودان مصرحاً ومعترفاً بها فى السر والعلن وفى كل الظروف من كبار رجال السياسة سواء منهم الانكليز والفرنسيون والمصريون والايطاليون وغيرهم .

وبدون أن ندخل فى تفاصيل اتفاقية سنة ١٨٩٩م من الوجهة الشرعية الامر المعلوم لكل إنسان يمكننا أن نؤكد أن هذه الاتفاقية لاتمس من أية ناحية كانت سيادة مصر على السودان .

وهذه الحقيقة ستظهر جلية واضحة عندما نضع أمام أعيننا مختلف التصريحات التى فاه بها رجال السياسة سواء منهم المصريون والانكليز ونحلل نفس نص تلك الاتفاقية ونعدد الفرمانات التى تخول مصر حق السيادة ابتداء من سنة ١٨٨٤ م :

ا ـ تصريحات رجال السياسة الانكليز :

١ ـ عبر اللورد غرانفيل فى التعليمات التى أصدرها فى ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ الى غوردون عن رأيه بالكيفية الآتية :

ينبغى فحص أحسن الوسائل التى يلزم اتخاذها لاخلاء داخلية السودان

وتوطيد دعائم الامن وإدارة المصالح والموانى القائمة على السواحل وذلك تحت سيادة الحكومة المصرية وإفادتنا بما ترونه » . اهـ

٢ ـ والبند الثانى من الاتفاقيــة الانكليزية الايطالية المعقودة فى سنة ١٨٩١ م نصه كالآتى :

« للحكومة الايطالية الحق فى احتـــــلال كسلا وما جاورها من البلاد لغاية العطـــــبرة وذلك فيما لو اضطرها مركزها الحربى لهذا الاحتلال . ومن المتفق عليه بين الدولتين المتعاقدتين أن كل احتلال حربى وقتى للارض الاضافية المبينة فى هـذا البند لا ينسخ حقوق الحكومة المصرية فى الارض المذكورة . وهـذه الحقوق تظل فقط موقوفة الى أن يصير فى استطاعة الحكومة المصرية احتلال المركز السالف ذكره » اهـ

٣ ـ وقال اللورد سالسبورى لسفير فرنسا فى ١٢ أكتوبر سـنة ١٨٩٦ م :

« إنى متمسك على وجه العموم بهــذا الرأى ذلك أن وادى النيل كان وما زال ولن يزال ملكا لمصر وإن كل مانع أو انتقاص ألم بحقوق هذه الملكية من جراء فتح المهدى واحتلاله قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الانكليزى المصرى فى أم درمان » . اهـ

وخطب اللورد روسبرى فى مدينة ابسون بتـاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٨٩٨ م فقال (١) :

« لكى تقـــــرر حقـوق مصـر على فاشـــودة بطـريقة

(١) ـــ راجع عددي التيمس المؤرخين ١٣ و ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٨ م .

حاسمة قد كفانا أن نذكر الحكومة الفرنسية بأقوالها فى السنين الاخيرة وذلك باستعارة أقوال المسيو دكريه وكوريسل وهانوتو وهى : « نحن على وشك أن نرد لمصر ماهو من أرضها وذلك حسب التصريحات التى فاهت بها كل الحكومات الفرنسية » . وهذا أمر جلى واضح حتى انه ليشق علىّ أن أصدق أنه فى الامكان العثور على أى شىء ينافيه » . اه

وأبدى المسيو غراى مثل هذا الرأى فى خطبة القاها فى مدينة يورك فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٩٨ م (١) بقوله :

« ليس على فرنسا إلا أن تلاحظ أن مسألة فاشودة مسألة متعلقة بالمبادىء والحقوق . فاذا كانت تريد أن تخرج من هذا المأزق فما عليها إلا أن ترجع الى المبادىء التى بينها المسيو هانوتو وتعمل بمقتضاها وبذلك ينحل الاشكال بسهولة » . اه

وخطب اللورد كمبرلى فى الوليمة التى أقيمت تكريما لكتشنر فى ١٤ نوفمبرسنة ١٨٩٨ م فقال (٢) :

« إن اخلاء فاشودة ليس فيه ما يحط من قدر فرنسا مادامت الحكومة الفرنسية هى نفسها صرحت أن الارض المتنازع عليها ملك مصر . فينبغي لفرنسا ان تصون سمعتها بألاّ تعمل نقيض ماصرحت به هى نفسها » . اه

وبين اللورد سالسبورى فى كتاب أزرق نشره سنة ١٨٩٨ م بجلاء ووضوح نظرية الانكليز فى مسألة فاشودة فقال :

---

(١) — راجع عدد التيمس المؤرخ ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٩٨ م .
(٢) — « « « « « ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ م .

« انها من ممتلكات مصر بلا نزاع » . اه [١]

وكتب اللورد كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠١ م ماياتى :

« ليس الغرض من عقد اتفاقية سنة ١٨٩٨ م حرمان مصر من حقوقها فى السودان بل تزويده بحكومة صالحة والتخلص من العقبات التى تلقيها فى طريقه مسألة الامتيازات [٢] » . اه

وكتب اللورد كمبرلى فى ٤ ابريل سنة ١٨٩٥ م الى اللورد دوفرن :

« اذا كانت مصر تسترد السودان الذى كانت تحتله فى المدة السالفة فمن الواجب علينا أن نعترف بحقها فى امتلاكه » . اه

واعترف اللورد كرومر فى تقريره عن سنة ١٩٠١ م بمشروعية الملحوظات التى أبداها مجلس الشورى عند الاقتراح على الميزانية الخاصة بالسودان . وهذه الملحوظات هى التى قرر فيها ذلك المجلس أن السودان جزء متمم لمصر .

(ب) ـ تصريحات الجانب المصرى .

فى أواخر عام ١٨٨٣ م عندما أكرهت وزارة شريف باشا على الاستقالة دونت أسباب استقالتها فى خطاب أذيع على الجمهور واليك ماجاء به :

« ان الحكومة البريطانية تحتم علينا اخلاء السودان مع أن قبول هذا الاخلاء ليس من حقنا لأن هذا البلد هو من ممتلكات الباب

---

(١) — راجع الكتاب الأزرق المؤرخ ٥ اكتوبر سنة ١٨٩٨ م .

(٢) — راجع تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠١ م . ص ٤

العالى وقد سلمنا حراسته . تقول حكومة الملكة إنه من واجبات مصر الاذعان لمشوراتها بدون مناقشة . وهذا تعد صارخ على فرمان ٢٣ اغسطس سنة ١٨٧٨ م القاضى بأن الخديو يحكم مع وزرائه وبواسطتهم . وقد استقلنا لأنه حجر علينا أن ندير الاحكام بمقتضى هذا الدستور » . اه

وفى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ م أكره الخديو على قبول مأمورية غوردون ومع ذلك فلا يوجـــد في التعليمات التى أصدرتها الحكومة المصرية أو الانكليزية لهذا الجنرال مايدل على أن هذا الاخلاء كان باتاً . بل الجواب الذى تلقاه الجنرال المذكور من الخديو فى التاريخ السالف ذكره يفيد عكس ذلك إذ يوصيه فيه بأن يساعد على أن يؤسس فى السودان حكومة ثابتة . وهذا أمر يدل على اهتمامه بشؤون السودان كما يدل فى الوقت نفسه على أنه عمل من أعمال التدخل والسيادة .

وفى سنة ١٨٨٤ م أرسل توفيق باشا نداء الى أهالى السودان يقول فيه إنه لاهتمامه بشؤونهم فوض اليهم أمر اختيار حكومتهم . وهذا بلا جدال عمل من أعمال السيادة .

وأرسل رياض باشا الى السير افلن بارنج بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٨ م مذكرة يقول فيها :

« لاينازع أى انسان فى أن النيل هو حياة مصر وهذا أمر واضح جلى لايختلف فيه اثنان . إذن النيل هو السودان ولا يرتاب أحد فى أن العلائق التى تربطهما لا انفكاك لها وهى أشبه شىء بعلاقة الروح بالجسد . فاذا استولت دولة ما على ضفاف النيل فعلى مصر العفاء . ويعلم من ذلك أن حكومة سمو الخديو لايمكن أن تقبل بمحض رضاها واختيارها

وبدون أن تكره على ذلك تمهداً لهذا على وجودها وحياتها[١] » . اهـ

وأدمج اللورد سالسبورى فى الكتاب الازرق الذى أذاعه سنة ١٨٩٨ م[٢] بصدد فاشودة خطابا من بطرس باشا غالى يقول فيه :

« تعلمون بفخامتكم أنه لم يغب البتة عن أنظار حكومة الخديو مسألة استرداد مديريات السودان التى هى عبارة عن ينبوع حياة مصر والتي لم تتخل عنها إلا على أثر طروء ظروف قوة قاهرة . وقد تضيع الفائدة من إعادة فتح الخرطوم اذا لم تسترد وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الشيء الكثير من الاموال والارواح . ولما كانت الحكومة المصرية تعلم أن هنالك مفاوضات دائرة الآن بين بريطانيا العظمى وفرنسا بصدد فاشودة فقد كلفتني أن أرجو فخامتكم أن تمدونا بحسن معونتكم لدى اللورد سالسبورى ابتغاء الاعتراف بحقوق مصر الثابتة ورد جميع المديريات التى كانت تحتلها لغاية قيام ثورة محمد احمد » . اهـ

وكان مجلس الشورى فى مرات كثيرة عندما يستدعى الى ابداء رأيه فى القروض التى تقدم للسودان لا يألو أن يكرر : « نحن نصادق على هذه القروض لأن السودان جزء متمم لمصر[٣] » .

واتفاقية سنة ١٨٩٨ م لا ترمى إلا الى الوجهة الادارية ولا تمس من أية ناحية كانت مسألة السيادة . وهذا هو دون سواه المفهوم من منطوقها واليك ايضاح ذلك . جاء فى الاتفاقية :

(١) — راجع الجريدة الرسمية عام ١٨٩٤ م ملحق عدد ٦٥٣ ص ٨٥٥
(٢) — راجع الكتاب الازرق المؤرخ في ١٥ اكتوبر سنة ١٨٩٨ م
(٣) — راجع محاضر هذا المجلس بتاريخ ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠١ و ١٩٠٩ م

« وحيث أصبح من الضرورى تنظيم طرق الادارة وسن لوائح وقوانين للمديريات التى استردت الخ » .

وهذا المفهوم من منطوقها أيدته الفقرة التالية من الاتفاقية وهى :

« حيث انه لاسباب كثيرة يمكن حكم وادى حلفا وسواكن مع المديريات التى استردت بطريقة أنجح نظراً لمجاورتهما لاراضى السودان الخ » .

فليس حق الافتتاح ولا غيره هو الذى حدا بالحكومة المصرية لان تدمج حلفا وسواكن فى ادارة السودان بل مركزهما الجغرافى فقط هو الذى حدا بها لأن تؤثر ضمهما الى حكومة السودان . وهذه مسألة شكلية صرفة .

ومن سنة ١٨٨٤ لغاية سنة ١٨٩٦ م لم تكف مصر عن أن تدرج فى ميزانيتها حسابا خصوصياً للسودان . ومذكور باحصائيات الحكومة المبالغ السنوية التى دفعتها طول هذه المدة وقيمتها بلغت . . . .

وإذن لم يترك السودان بتاتاً .

ومن عام ١٨٩٦ م الى يومنا هذا مافتئت مصر تسدد عجز ميزانية السودان وتقدم له القروض اللازمة لاصلاحه وتمون فيه مجموع جيشها تقريبا ابتغاء حفظ الأمن واخماد الثورات التى كان يندلع لسان لهيبها فيه من وقت لآخر والقيام باشغال كثيرة للمنافع العمومية .

وكلفت الحكومة هذه القروض المتعددة ومصاريف تموين هذا الجيش زيادة بلغت . . . . وذلك حسب المدون فى القسم الثانى من هذه المذكرة الخاص بالحسابات .

ولقد بذلت مصر هذه التضحيات الهائلة رغماً عما عليهـا من الديون التي تئن تحت أعبائها ورغماً عما لديها من الاحتياج الملح لانجاز مشروعات هامة للمنافع العمومية . وبالأخص اشغال الري إذ كان من المستطاع اصلاح مليونين من الافدنة بدون احتياج لصرف نصف هذه القيمة .

واذا كان لانكلترا من الحقوق في السودان مثل ما لمصر فما كان هنالك شيء يقعدها عن أن تدفع سنويا نصف ماتدفعه مصر : فليس في استطاعة انسان أن يدرك شركة تكون الفائدة فيها لشريك والخسائر على الشريك الآخر .

وهنالك اعتبارات أخرى من الوجهة الاقتصادية تربط السودان بمصر :—

إن أراضي السودان مازالت للآن بكرا عذراء وتجارتها لابد لها في المستقبل من الاتساع ومنتوجاتها لابد لها من الازدياد في القريب العاجل نظراً لاتساع أرضها وخصوبتها . ومع أن الســــودان لديه بور سودان لتصريف بضائعه . فهذا الثغر وحده لا يكفي لتصريف بضاعة البلد عندما تزداد بعض الزيادة . وتمس الحاجة لمرور جانب كبير من بضائع السودان عن طريق مصر وبالأخص يوم تشتد في المستقبل وطأة مزاحمة التجارة في هذا البلد وتفضل من الطرق أقصرها وأسرعها .

يبـادل السودان الآن اكبر جانب من تجـارته مع مصر وسوف يبادلها معها دواما لأن هذين البلدين لاغنى لأحدهما عن الآخر .

اصطلحت الأمم المتمدينة على مشروعية استعمار البلاد التي تسكنها الاقوام الرحـل المتوحشة أو الاقوام المتأخرة كثيرا في المدنيـة بحيث

مدنيتهم لا تسمح لهم أن يستغلوا من ارضهم ما يرتقب منها من الانتاج لأن الأمم المتمدينة ترى أن الارض ملك مشاع للانسانية وبناء على هذا المبدأ يحق للأمم المزدحمة بلادها بالسكان أن يرحلوا جانبا من الاهالى الى الاراضى غير الآهلة كثيراً بالسكان . ومصر من البلاد التى تعج الآن بكثرة عدد سكانها الآخذ فى الزيادة باضطراد على توالى الايام بحيث أخذت الارض تعجز عن أن تفى بحاجات ساكنيها وبعد مرور بضع سنوات ستكون مسألة اسكان مايزيد من السكان عن طاقتها من المشاكل الاجتماعية المعقدة التى تواجه الجيل القادم ويتكافف هو حلها .

وليس هنالك بلد أكثر صلاحا لاسكان مايفيض من الاهالى عن طاقة مصر غير السودان لأنه متاخم لها ولانه بلد زراعى بمعنى الكلمة وتربطه بمصر روابط شتى .

ومن المبادىء العامة التى أقرتها السياسة الدولية ووضعتها نصب أعينها بعد الحرب الكبرى مبدأ الجنسية وهو عبارة عن تكوين وحدات سياسية وحشد طوائف اجتماعية من عنصر واحد . وهذا المبدأ ينطبق على مصر والسودان لأن غالبية سكانهما من عنصر عربى الاصل ومتحد فى اللغة والدين وعوائد السودانيين أكثر مشاكلة لعوائد المصريين أكثر من أية أمة أخرى .

ويخطر ببالنا أننا أوضحنا حقوق مصر فى السودان بطريقة لايمارى فيها ممار . ولننتقل الآن الى حسابات هذا البلد مع مصر .

القسم الثـــانى

المبالغ التى أنفقتها مصر على السودان

المبالغ التى أنفقتها مصر على السودان تنقسم الى ثلاثة أقسام :—

(١) — القروض التى أخذت من الميزانيـــة المصرية المعتـــادة .

(٢) — القروض التى أخذت من الاحتيـــاطى .

(٣) — نفقـــات الجيش المصرى بالســـودان .

وقد أضفنـــا إلى هذه المبـالغ جميعها أرباحا سنوية بواقـع ٣ ٠/٠ حسب التصريح الذى تقيـــدت به وزارة الماليـــة المصرية أمام مجلس شورى القوانين بناء على الرغبة التى أبداها هـــذا المجلس فى ١٨ ديسمبر سنـــة ١٩٠٩م مشيراً فيهـــا باضافة أرباح إلى جميع المبـــالغ المعطاة للسودان مســاوية للأرباح التى تدفعها مصر لمداينيهـــا .

وهاك بيان هـــذه المبـالغ :—

(١)

بيان القروض التى أخذت من الميزانية المصرية المعتادة

السنوات	القروض	الفائدة ٣ ٪
	جنيه مصرى	جنيه مصرى
١٨٩٩ م	١٤٠ر٦١٣	٤ر٢١٨
١٩٠٠ م	١٣٤ر٣١٧	٨ر٣٧٤
١٩٠١ م	١٩٤ر٥٤٥	١٤ر٤٦٢
١٩٠٢ م	٢٦٧ر١٧٣	٢٢ر٩١١
١٩٠٣ م	١٩٦ر٠٦٣	٢٩ر٤٨٠
١٩٠٤ م	١٩٣ر٨٥٠	٣٦ر١٨٠
١٩٠٥ م	١٩٣ر٠٠٦	٤٣ر٥٥٦
١٩٠٦ م	٢٥٣ر٠٠٦	٥١ر٩٣٨
١٩٠٧ م	٢٥٣ر٠٠٦	٦١ر٠٨٦
١٩٠٨ م	٢٥٣ر٠٠٦	٧٠ر٥٠٩
١٩٠٩ م	٢٠٨ر٠٠٠	٧٨ر٨٦٤
١٩١٠ م	١٩٨ر٠٠٠	٨٧ر١٣٠
١٩١١ م	١٨٨ر٠٠٠	٩٥ر٤٢٥
١٩١٢ م	١٦٣ر٠٠٠	١٠٣ر١٧٨
من ١٩١٢ الى ١٩٢١	٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠٧٦ر٥٧٩
	٢ر٨٣٥ر٥٨٥	١ر٧٨٣ر٣٩٠

المجمــوع الكلى ٤ر٦١٨ر٩٧٥

(٢)

بيان القروض التى أخذت من الاحتياطى

السنـــوات	القـــروض	الفـــائدة ٣٪
	جنيه مصرى	جنيه مصرى
١٨٩٦ م	٦٤٠ر٣٠٥	١٩ر٢٠٩
١٨٩٧ م	٦٥٤ر٨٢٨	٣٩ر٤٣٠
١٨٩٨ م	٥٥٠ر٣٧٨	٥٧ر١٢٤
١٨٩٩ م	٥٦٤ر٧٤٥	٧٣ر٩٨٠
١٩٠٠ — ١٩٠١م	٢٠٨ر٥٧١	٨٢ر٤٥٧
١٩٠٢ م	١٥٥ر٤١٧	٨٩ر٥٩٣
١٩٠٣ م	١٤٦ر٥٤٤	٩٣ر٦٧٧
١٩٠٤ م	٦٣٠ر٣٩٢	١١٥ر٣٩٩
١٩٠٥ م	٧٠٤ر٤٥٥	١٣٩ر٩٩٥
١٩٠٦ م	٦٧٢ر٢٤٢	١٦٤ر٣٦٢
١٩٠٧ م	٩٠١ر٥٩٨	١٩٦ر٣٤٢
١٩٠٨ م	٦٦٥ر٦٠٧	٢٢٢ر١٩٩
١٩٠٩ م	٦٤٥ر٢٠٠	٢٤٨ر٢٢١
١٩١٠ م	٥١٨ر٨٦٦	٢٨٠ر٢٣٤
١٩١١ م	١٣٢ر٥١٠	٢٩٢ر٢١٦
١٩١٢ م	٤٥ر٧٢٨	٣٠٢ر٧٦٦
١٩١٣ م	٤٣ر٨٥٦	٣١٤ر١٦٥
١٩١٤ م	٤ر٩٨٩	٢ر٣٤٩ر٥٧٨
١٩١٤ — ١٩٢١م	٠٠٠ر٠٠٠	
	٧ر٨٨٦ر٢٣١	٥ر٠٨١ر٢٤٦

المجمـــوع الكلى ١٢ر٩٦٧ر٥٧٧

(٣)

بيان نفقـــــــــــات الجيش

فى حساب هذا البيان راعينا المبالغ التى كانت تنفق على الجيش المصرى قبل فتح السودان وقبل الاستعدادات التي عملت لهذا الفتح فلم نحسبها . وأضفنا على السودان فقط الفرق بين مصروفات الجيش حال وجوده بالسودان ومصروفاته قبل الفتح حال وجود أكبر قوة عسكرية منه .

وللوصول الى هذه الغاية أخذنا متوسط ميزانية الجيش من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٨٩٢ م . فوجدنا هذا المتوسط ٣٨٣ر٣٣٠ جنيه مصرى . فخذفنا هذا المبلغ من الميزانية السنوية للجيش المصرى من سنة ١٨٩٩م سنة المعاهدة الى سنة ١٩٢١م وأضفنا على السودان الباقى بعد خصم هذا المتوسط .

وتعمدنا عدم ذكر نفقات الجيش من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٨٩٩م لأن هذه النفقات عملت لفتح السودان ولا يجوز اضافتها الى هذه المبالغ .

ورغما عن أن الجيش كان بأجمعه فى السودان فان المصروفات التى أضيفت على السودان هى أقل من ثلث مجموع مصروفات الجيش المصرى . ولو جرينا على تقسيم مصروفات الجيش المصرى بين مصر والسودان بقياس عدد العساكر التى فى كل منهما لكان على السودان أن يتحمل كل ميزانية الجيش تقريباً .

وها هو بيان نفقات الجيش من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٨٩٢م الذى جعلناه أساساً لإستخراج المتوسط : —

السنوات	النفقات
	جنيه مصرى
١٨٨٣ م	٢٤٦ر٩١٤
١٨٨٤ م	٢٧١ر٢٧٩
١٨٨٥ م	١٢٩ر٣١٠
١٨٨٦ م	١٤٠ر٩٣٦
١٨٨٧ م	٢٠٦ر٠٦٣
١٨٨٨ م	٣٨٦ر١٣٨
١٨٨٩ م	٤٩٤ر٥٥١
١٨٩٠ م	٤٦٠ر٩٧٧
١٨٩١ م	٤٩٤ر٣٠٠
١٨٩٢ م	٤٧٣ر٣٥٦
المجموع	٣ر٣٠٣ر٨٢٣